د. نبيل فاروق

اعترافات زوج خائن

كما رواها
د.م.ج



للنشر والإعلان



اعترافات زوج خائن

هذا الكتاب ليس كتاباً عادياً ..

بل كتاب مختلف..جداً..جداً ..

إنه سيرة ذاتية واعترافات غير عادية

لزوج مصرى يخون زوجته ،حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

أعترافات واقعية جداً،وصريحة جداً،إلى حد قد يصدم

مشاعرك أويفزعك، كما صدمنى وأفزعنى،ولكنه،على الرغم

من هذا ليس كتاباً للإثارة الرخيصة، أو وسيلة لتحقيق ربح

سهل غير نظيف،بل هو محاولة جادة ، لكشف جانب مظلم

من المجتمع،وإيجاد صيغة مثالية لتوازن الأسرة ،وكشف

أسباب الخيانة،وفشل العلاقات الزوجية ..

مجرّد محاولة ..

د. نبيل فارُوق

د. نبيل فاروق

اعترافات زوج خائن

كما رواها (د.م.ج)



للنشر والإعلان

قبل أن تقرأ

هذا الكتاب ليس رواية اجتماعية..

وليس مُجرّد أحداث صنعها خيال كاتب أوأديب..

بل هو حقيقة..

مائة فى المائة..

إنها بالفعل اعترافات زوج..

خائن..

اعترافات رجل يخون زوجته مع أُخريات..

نعم.. أُخريات..

وهو يرويها بنفسه..

ولأنه شخص مُثقّف مُتعلّم، يحمل شهادة مرموقة، ويعمل فى جهة ذات هيبة وسيادة، ويمتلك عقلاً اعتاد البحث والتحليل، فهو لا يروى مذكراته لِتُصبح مادة للإثارة والإبهار..

أو للإفساد..

فالكتاب الذى بين يديك يتحدَّث عن أمر شائك، ندُر أن يخوض فيه المرء بهذه الصراحة وهذا الوضوح..

وخاصة عندما يتحدَّث عن نفسه..

وعلى الرغم من هذا، فهو ليس كتاباً جنسيّاً، يسعى لمداعبة غرائز المراهقين والمرضى..

وليس محاولة لتبرير الخيانة أو تبرئة من يخون..

سواء أكان رجلاً أم امرأة..

إنه كتاب جاد للغاية..

كتاب يغوص فى أعماق زوج خائن، بحثاً عن الأسباب الأخلاقية والاجتماعية والنفسية، التى دفعته إلى الخيانة..

وكل ما ستقرأه فى هذا الكتاب حقيقى، فصاحبه كان زميلاً لى، فى بعض مراحل الدراسة، ولقد عايشت الكثير مما رواه عن صباه وشبابه، وكنت أشعر بالذعر والهلع، مما يقوله ويفعله، من أمور لم تعتد بلدتنا الصغيرة مثلها قط، فى ذلك الحين..

أو حتى نصفها..

أو ربعها..

وكان من الطبيعى والحال هكذا، ألا تربطنى به أية صداقات أو تعاملات، نظراً للاختلاف الجوهرى بين طبيعتينا..

ولكنه كان شخصية عجيبة بالفعل..

ففى الوقت الذى يُمارس فيه كل أنواع الفساد والانحراف، ويتحدّى القيم والقواعد والأخلاقيات، بلا مبالاة أو اهتمام كان فى أعماقه يحمل روح فنان..

ولا تجعلوا هذا يُدهشكم كما أدهشنى عندئذ..

لقد كان بالفعل فناناً من نوع خاص جداً..

ولأننى ارتبطت طوال سنوات الجامعة باتحاد الطلاّب، وكنت لعامين متتاليين أمين اللجنة الفنية فيه، كان من الطبيعى أن تربطنى به بعض التعاملات..

وحمل إلىّ هذا التقارب مفاجأة جديدة..

فصاحبنا يفعل كل ما يفعله، ثم يُلقيه وراء ظهره، ويقبل على الدنيا بقلب مفتوح أو بطبيعة طيبة دافئة، لا تسعى أو تتمنى الشر لأحد قط..

حتى لأعدائه..

وهكذا، وعلى الرغم من دهشتى واستنكارى، وجدتنا صديقين..

ولأنه ذكى إلى حد كبير، فقد أدرك أننى اختلف تماماً عن شلته..

ولم يُزعجه هذا..

فمعى كان شخصاً مُختلفاً تماماً، عمّا يكونه مع رفاق الشلة.

وكذلك مع الآخرين..

ذكاؤه جعله يُدرك أن لكل مقام مقال..

ولكل أمرؤ ما هوى..

ثم فرّقتنا الأيام لسنوات وسنوات..

ومع مرور الوقت، تصوّرت أنه قد تغيّر حتماً، وتخلى عن طيش الشباب ونزوات المراهقة، خاصة وقد علمت من أصدقائنا المشتركين أنه قد تزوّج، وأنجب، واستقر..

ثم جمعتنا الأيام مرة أخرى..

ووجدته كما هو..

كل شئ فيه ظل على حاله..

حتى هيئته..

كان وكأنه لم يكبر يوما واحدا، منذ رأيته آخر مرة..

ووجدت نفسى -كالسابق- ارتاح لمجلسه ومحادثته ولقائه..

ولقاء بعد لقاء، وجدنا نفسينا نتحدث عن فكرة هذا الكتاب..

فى البداية كانت الفكرة مجنونة تماما، وكان كلانا يخشى أن يتصور الناس أنه مجرد كتاب مبتذل، ينضم لقائمة الكتب الرخيصة، الملقاة على الأرصفة، وفى واجهات المكتبات الصغيرة..

ولكن عقلينا تجاوزا هذه المخاوف بسرعة..

فالكتاب سيصدر عن دار نشر جادة، وسأقوم بصياغته بنفسى، ككاتب ملتزم، لم يلجأ إلى الابتذال أو الإثارة الرخيصة قط..

والصياغة هنا تعنى أن أقوم بدور أشبه بالمترجم فحسب ، دون أى تدخل

منى فى الأحداث أو الترتيب ..

المترجم الذى ينقل الحديث، من العامية البسيطة ، إلى لغة عربية أدبية سلسة،لا تُفقد الاعترافات صدقها ، أو انسيابيتها ..

أو جرأتها ..

ولأن كلينا شغوف بالمغامرة، فقد وضعنا الفكرة موضع التنفيذ..

وانطلقنا نعمل فى هذا الكتاب..

والآن حان دوركم..

انطلقوا معنا، واسبحوا مع اعترافات الزوج..

الخائن..

د. نبيل فاروق

البداية

لست أدرى من أين تأتى البداية، فكلمة الخيانة هذه لا يمكن أن تُطلق إلا على رجل مُتزوج، وبدايتى لم تأت مع الزواج..

بل جاءت قبل هذا بكثير..

فى بداية المرحلة الثانوية..

ربَّما يرى البعض أنها بداية مُبكرة جداً، ولكن هذا ما حدث بالفعل، ففى ذلك الحين كنت شاباً عادياً طبيعياً، أمر بنفس الظروف التى يمر بها خمسة وسبعون فى المائة من الشباب المصرى تقريباً، وفى تلك المرحلة من العمر، يتشكَّل الفكر ويتبلور، وتؤثِّر فيه كل العوامل الاجتماعية والنفسية بشكل قوى..

وربَّما كانت بدايتى خاطئة، ولكنها الحقيقة، وكل ما استهدفه من هذا الكتاب هو نقل الصورة بشكل واضح وصريح، وعرضها بمنتهى الأمانة والصدق، حتى يُدرك الكل كيف يمكن أن يتشكَّل الشباب، مع تجارب قد لا ينتبه إليها ذويهم، وحتى أملأ بداخلى الرغبة الحميمة فى وضع نواة للمساهمة فى الارتقاء بالفكر الاجتماعى والجنسى فى الأسرة المصرية، وتطويره بحيث يواجه الحقائق مباشرة، وبصراحة تكفى لتجاوز الأزمات، بدلاً من دفن رءوسنا فى الرمال، وإشاحة وجوهنا عن الحقائق، ثم البكاء بعدها على النتائج..

وبالنسبة لى، وهذه حالة خاصة جداً، كانت البداية فى إجازة العام الأوَّل الثانوى.. كان عمرى أيامها ١٦ أو ١٧ سنة، عندما أتى أحد أقاربى لزيارتنا، فى بلدتى الصغيرة..

كان مهندساً بحرياً، اعتدنا أن يقضى عمره كله فى البحر، وكعادة رجال البحر، فى تلك الفترة، كان أعزباً، وله فى كل ميناء قصة حب ولعبة غرام، وكان هذا يُبهرنى كثيراً أيامها بحكم حداثة سنى، وغموض هذا العالم بالنسبة لى كمراهق شرقى، حاصرته التقاليد بأن مجرد الاقتراب أو التفكير فى هذه الأمور هو العيب ذاته..

وفى تلك الفترة، كانت باخرة قريبى هذه تحتاج إلى عمرة إصلاح، مما جعلها تتوقَّف فى (الإسكندرية)، لثلاثة أشهر، فجاء لزيارتنا للمرة الأولى، منذ سنوات طوال، وكنت أنا فى تلك الفترة فى ذروة حالة تمرُّد المراهقة، وأنا بطبيعتى شخص مُتمرِّد، وكان التمرُّد أيامها هو أن أدخن ثلاث سجائر فى الأسبوع، وكان من الممكن أن أقطع كيلو مترين على قدمىَّ، حتى أدخن سيجارة واحدة، أو أخرج لتدخينها فى الشرفة، فى عز البرد، ثم أُخفى أثرها بعدها بقرص من النعناع..

وفى تلك المرحلة، طلب قريبى من أبى وأمى أن يأخذنى معه لقضاء الصيف فى (الإسكندرية)..

ولأننى وحيد والدىَّ، فقد وافقا على سفرى معه، ثقة فيه، ورغبة فى منحى إجازة سعيدة، ربَّما لم يكن بإمكانهما منحى إياها عندئذ..

وسافرت إلى (الإسكندرية)، مع قريبى هذا..

وفى ذلك الحين، كان أقصى ما يُمكن أن يصل إليه تفكيرنا، بالنسبة للجنس الآخر، هو أن نُرسل خطابات لبنت الجيران، أو نتبادل نظرات الحب مع قريبة من الدرجة الثالثة..

وهناك وقفة، ورأى خاص، بالنسبة لعملية فصل البنات عن البنين فى المدارس، فهذا الأمر يجعل التفكير الجنسى مُلتهباً ومُشتعلاً، لأنك لا ترى البنات إلا فى الشارع، أو على شاشة السينما والتليفزيون، أما لو كانت هذه البنت هى زميلة فصلك ودارستك، فمن المؤكَّد أنك ستتعامل معها بهدوء أكثر، وشكل أفضل، وهذا لأن تواجد الجنسين متجاورين، منذ مرحلة الطفولة، هو الوسيلة الوحيدة لمنع الصدام الجنسى فى مرحلة المراهقة، والصدمة الجنسية، التى يحدثها الالتقاء المفاجئ بالجنس الآخر، فى الدراسة أو العمل..

مُجرَّد رأى..

المهم هو أنه فى الفترة التى كان فيها الموعد البرئ انطلاقة عظيمة فى عالم العلاقات بالنسبة لزملاء عمرى ودراستى، كنت أنا أمر بظروف مختلفة تماما..

فطبيعة قريبى هذا كانت ترتبط بالمحترفات، اللاتى لا يهمهن سوى الحصول على المقابل المادى فحسب، ولقد أراد مجاملتى، فدفع إحداهن فى طريقى..

وكانت تجربة جديدة..

وعنيفة..

فتلك المحترفة وجدت أمامها شابا يخوض تجربته الجنسية الأولى، فاستهواها الأمر بشدة، وقررت أن تكمل اللعبة بطريقتها هى، وليس بطريقتى..

ففى كل صباح، وعندما يخرج قريبى لمتابعة عمليات إصلاح باخرته، كانت تأتى لزيارتى، ومعها طعام وشراب، وكحوليات، وحتى مخدرات..

وتحولت من عاهرة إلى صائدة شرسة مخضرمة، تسعد بافتراس مراهق يافع، وامتصاص شبابه حتى آخر قطرة..

ولأن كل ذرة فى كيانى كانت تفور -حينذاك- باللهفة والرغبة، فقد عشت معها التجربة بكل أحاسيسى، وانغمست فيها حتى النخاع..

وعلى يديها تعلمت الانغماس فى كل شئ..

فى الجنس..

والخمور..

والمخدرات..

ولم تكن هى تتقاضى منى قرشا واحدا، مقابل كل هذا..

حتى الطعام والخمور والمخدرات، كانت تشتريها بنفسها..

وهكذا كانت عاهرة هى التى وضعت اللبنة الأولى، فى تشكيلى النفسى والعاطفى، مما كان له أكبر الأثر فى ترجمة مفهومى العاطفى فيما بعد..

وعندما علم قريبى وأصدقاؤه بهذا قالوا: إن ما حدث جعلنى أصبح (بتاع

نسوان)..

والعجيب أن عبارتهم هذه وجدت صدى فى نفسى، ومنحتنى انطباعاً ملأ كيانى بالزهو والفخر، وجعلتنى أحرص على أن تكون هذه صورتى دائماً، فى وسط أصدقائى، وليس فى المجتمع ككل..

وبعد صيف مُلتهب عام ١٩٧١م، أو ١٩٧٢م، عدت إلى الدراسة، وقد تغيّرت شخصيّتى وتبدّلت، بعد التجربة..

وأمام مدرستى مباشرة، كانت هناك مدرسة بنات، وكان كل زملائى يتلهفون لتبادل الإشارات معهن، ومنتهى أمل الواحد منهم هو أن تغمز سنارته، ويحصل على موعد غرامى..

وشعرت أنا أن كل هذا مُجرّد تفاهات، فبعد تجربتى لم أعد أبالى أو اهتم بالحب أو الغرام، وكان من المستحيل أن اكتفى بموعد أو لمسة يد..

الأنثى - بالنسبة لى - أصبحت مُجرّد أداة جنسية، كل مهمتها هى إشباع رغبتى، وإطفاء نيران شهوتى فحسب..

هكذا تعلّمت ..

لهذا أصبحت قائداً مُخضرماً، بالنسبة للزملاء والأصدقاء، وصار الجميع يسعون للحصول على مشورتى ورأيى، فى كل ما يُخامرهم من مشاعر وأفكار وأحاسيس..

ولم يكن هذا هو الانعكاس الوحيد للتجربة، بل كان هناك ما هو أكثر خطورة..

فوالدى رجل من طبقة متوسّطة مستورة، وهو مُتدين جداً، ويُصلى الوقت بوقته، كما يقولون فى بلدتى، ولأننى ابنه الوحيد، كان يهتم بكل ما يخصنى، ويمنحنى منتهى ثقته فى الوقت ذاته..

وطوال عمرى، كنت أرضخ لتوجيهات أبى، وأحاول نيل رضاه..

حتى خرجت من تجربة صيف (الإسكندرية)..

فلقد انطلق تمردى من عقاله، وتصورت أننى قد صرت رجلاً، وليس من حق أحد أن يُملى علىَّ تصرفاتى، بعد أن أثبت رجولتى بمعاشرة أنثى ناضجة، ورفضت الخضوع لكل ما يقوله أبى، ورحت أصنع عكس ما يطلبه، فى كل الأحوال، على الرغم من أنه كان يسعى لصالحى، كما أدركت فيما بعد..

وكخطأ فادح، يقع فيه كل الآباء، كان المؤشر الوحيد بالنسبة لأبى، للدلالة على صلاحى، هو التفوق الدراسى، ولقد منحته هذا بشكل مرض جداً، فكنت طوال المرحلة الثانوية فى فصل المتفوقين، حتى حصلت على الثانوية العامة بمجموع كبير، أهلنى لدخول أعلى كليات القمة..

ومع دخولى الكلية، بدأت مرحلة انطلاق جديدة..

ولقد بدأت تلك المرحلة، وكل اهتمامى ينصب على البحث عن بنات يمكننى إقامة علاقة معهن..

ولم تكن لدى أية عواطف أو مشاعر أو نفسيات..

كنت أبحث عن الجنس..

والجنس وحده..

كأن عواطفى كلها تقتصر على رغبة حيوانية بحتة، أبحث عن أية وسيلة لإشباعها بأى ثمن..

وفى تلك المرحلة من عمرى، أدركت أنه لكل بنت فى هذا السن مفتاح..

وأنه لا توجد بنت يستحيل الإيقاع بها..

المهم أن تجد المفتاح المناسب..

وأن تتلوّن باللون الذى يُناسبها..

فهناك بنت يعجبها الولد (المخربش)، وأخرى تميل للشخص الرومانسى، وثالثة لا ترتبط إلا بشخص مُهذّب..

وكل ما عليك هو أن ترسم الشخصية التى يمكنها استمالتها، فتكون جريئاً مباشراً مع الأولى، وتتحدث بالكثير مما لا تشعر به أو تهتم بأمره مع الثانية، وترتدى قناع الأدب والأخلاق مع الثالثة..

ولست أنكر أن هذا نوع من المكر والخداع.. وربما الخسة أيضاً، ولكن الرغبة التى تملأ كيانى كانت مستعدة للقيام بأى عمل فى الدنيا، حتى تبلغ هدفها..

وبالطبع لم يكن الهدف يصل أبداً إلى علاقة جنسية كاملة، فنحن فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر، ولا توجد إمكانيات أو أماكن يمكن أن تُمارس فيها هذا، لذا فقد كنا نسير عدة كيلو مترات، فى قلب الطريق الزراعى، أو نلتقى فى منطقة مهجورة، أو فى بئر السلم..

وعلى الرغم من أننى أشعر الآن بالمواقف السخيفة التى واجهتها حينذاك، وبالمتاعب الجمة والمشكلات العنيفة التى كنت ارتطم بها، إلا أن الرغبة المشتعلة فى أعماقى حينذاك كانت تجعلنى مستعداً لدفع عمرى كله، مقابل بلوغ هدف كهذا..

والعجيب أن هذا لم يكن لإفراغ شهوة الجنس فحسب، ولكن للحفاظ أيضاً، وربما كان هذا هو الأهم، على مكانتى بين أصدقائى، كشاب خبير مجرّب..

وكان هذا هدفاً كبيراً فى حد ذاته، حتى أننى جعلت أصدقائى يلتقون بقريبى مهندس البحرية، حتى يؤكد لهم ما حدث فى (الإسكندرية)، ويضمن استمرار واستقرار زعامتى بينهم..

وحتى أصبح زعيماً بحق – من وجهة نظرى حينذاك – كان ينبغى أن أفعل ما لم يفعله أحدهم، ففى ذلك الوقت كنت ارتاد صالة (ديسكو)، وهذا أمر لم يكن مألوفاً، أو حتى معروفاً، وكنت أشرب (البيرة)، وأُدخن المخدرات، وكنت الوحيد بين زملائى، الذى يحمل فى جيبه دائماً علبة سجائر كاملة..

وكانت هوايتى هى إثبات تفوقى للجميع، فلو جاء زميل مثلاً، ليخبرنى أنه التقى ببنت وقبّلها، أسأله فى استهانة : ثم ماذا؟!..

وكان هو يرتبك ويخجل، لأنه كان يتصوّر أن ما فعله أمراً كبيراً جداً، ثم يجدنى أسفّهه فى سخرية، ومن الطبيعى بعدها أن يُسلمنى قيادته، ويعترف بزعامتى، ولكى تُدرك ما الذى تعنيه، أو كانت تعنيه الزعامة فى عمرنا هذا، دعنى أُخبرك عن زميل لى، كان مبهوراً بأسلوبى، وكان كل ما يفعله هو أن يقضى يومه فى مراقبة جارتين جميلتين فى مثل عمره، عبر نافذة حجرته،

وأدركت البنتان ما يفعله، فتفننتا فى استثارته، وإلهاب أعصابه واللعب به، ففى مثل هذه الظروف تشعر البنت بشئ من الأمان، باعتبار أنها فى منزلها، ولن تخسر شيئاً – من وجهة نظرها – مما أوصل صاحبنا هذا إلى الذروة، ودفعه إلى محاولة تقليد ما أفعله، فى مثل هذه الظروف، طبقاً لما يسمعه منى، فهرع إلى أقرب صيدلية، وطلب زجاجة من زجاجات (الكينا)، وهو دواء يحوى نسبة من الكحول، ثم سأل الصيدلى عمّا إذا كانت (الكينا) حراماً أم حلالاً، وعندما أخبره الصيدلى أن الدواء كله حلال، هتف معترضاً : "لأ.. أنا عايز حاجة حرام.."..

وهذا الزميل الآن مهندس كبير، له منصبه وسمعته، ومتدين جداً، ولكن ضعف العقل فى مرحلة المراهقة، والرغبة فى التقليد الأعمى دفعاه إلى هذا..

كل هذا حدث فى المرحلة الثانوية، ولم يكن الأمر بسيطاً بالنسبة لى، ولكنها اللهفة، التى امتزجت بزهو زائف، ورغبة مستعرة فى إثبات التفوق الجسدى..

ثم جاءت مرحلة الجامعة..

وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يحسدوننى ويهنئوننى على التحاقى بكلية الطب، إلا أننى وحدى لم أكن أشعر بالارتياح والاستقرار..

بل بالتوتر والقلق..

والسبب هو الرغبة أيضاً..

فصحيح أن الكلية مرحلة اختلاط بين الجنسين، إلا أن بنات الطب كُن بعيدات تماماً عن الطراز الذى يناسبنى..

وصحيح أن الأنثى هى الأنثى، والمشاعر واحدة لدى الكل، تتساوى فيها ابنة الذوات مع الخادمة، والأمية مع حاملة الدكتوراه، ولكن بنات الطب كُن يرغبن فى تغليف الأمر بإطار محترم جداً، ربّما لأن المساحة الأنثوية مدفونة على عمق كبير فى وجدانهم..

ولم يكن هذا الاحترام يدخل ضمن الأقنعة، التى اعتدت ارتداءها..

وأيامها لم يكن الانفتاح قد بدأ بعد، وكان امتحان الثانوية العامة شاقاً قاسياً، ولم تكن هناك فرص تحسين أو خلافه، وكان الأول على الجمهورية يحصل على ٩٧% على الأكثر، وليس على أرقام تتجاوز النهايات العظمى..

ولقد حصلت أيامها على ٩١%، وكان هذا يُعدّ مجموعاً كبيراً، لدرجة أن الدولة كانت تمنح من يحصل على مجموع يتجاوز الثمانين فى المائة، مكافأة شهرية قدرها ثمانية جنيهات..

المهم أن التحاقى بكلية الطب رفع رصيد الثقة عند أهلى إلى ذروته، مما منحنى حرية أكثر، وامتيازات أكبر، وتوافق هذا مع زيارات قريبى مهندس البحرية لنا، وأردت أن أُجامله كما فعل معى فى (الإسكندرية)، مما جعلنى أبحث بمنتهى الاهتمام والجدّية، عن منافذ للحصول على الخمور والمخدرات، فى بلدتى الصغيرة، حتى أثبت له أننى صرت خبيراً مثله، وكان من السهل، فى وضعى الحالى، أن أطلب من أبى عشرة جنيهات، لدعوة قريبى، الذى قضيت الصيف كله معه، فى مكان أنيق، ثم أنفقها لدعوته على المخدرات والخمور، كنوع من رد الجميل..

وهكذا، بدأت حياتى الجامعية، وأنا اعتبر نفسى خبيراً فى كل أنواع المزاج،

مما جعل مقرى الرئيسى فى الكلية هو (الكافيتيريا)، التى تمتلئ فى المعتاد بكل من ليس لديه عمل، وكل من اعتاد (التزويغ) من المحاضرات وحصص المواد العملية..

وفى (كافيتيريا) كلية الطب، كونّت شلة جديدة، بعضها من زملاء المرحلة الثانوية، والبعض الآخر من الجدد، الذين تُبهرهم نوعيتى وشخصيتى المنفلتة..

ولأن مُجتمع الكلية يختلف عن فترة الدراسة الثانوية، كان علىّ أن أبحث عن وسيلة جديدة لجذب الانتباه، كما فعل بعض الزملاء، الذين اتّجهوا لممارسة بعض الرياضات المختلفة..

وهكذا اتّجهت إلى فريق التمثيل..

كانت وسيلة جديدة، أصل بها إلى أهدافى نفسها، وأتحوّل معها إلى مصدر جذب للجنس الآخر، بحيث يُمكننى تنفيذ ما أسعى إليه وأبحث عنه دائماً..

ويا لها من وسائل مختلفة وملتوية، لبلوغ هدف واحد..

المهم أن حياتى انقسمت إلى تمثيل ومحاضرات و(كافيتيريا)..

وعالم (الكافيتيريا) ينقسم إلى عدة شلل، كل شلة لها طبيعتها وسماتها، وشلتنا كانت شلة المنحرفين، والقاعدة تقول : الطيور على أشكالها تقع، ولهذا كانت البنت التى ترتبط بشلتنا تعتبر أن هذا موافقة منها على الدخول فى علاقة ما مع أحدنا..

وفى تلك الفترة كان هناك عامل جديد قد أُضيف إلى الموقف، فالعديدون ممن التحقوا بالكلية، لم يكونوا من سكان المدينة، لذا كان من الطبيعى أن يستأجروا بعض الشقق المفروشة، للإقامة، ولأن بعضهم من أصدقائى، أو من شلتى على وجه الدقّة، أصبحت لدى شقق مفروشة عند الطلب، مما شجعنى على تطوير علاقاتى، بحيث صار من الممكن أن أُقيم علاقة كاملة، دون فضائح..

وفى بلدة صغيرة كبلدتى، أكثر ما يهمك هو الابتعاد عن الفضائح، ولهذا لم

أفضّ بكارة عذراء قط.. كنت أحصل من كل واحدة على أقصى ما يمكنها منحه، دون أية خسائر..

وكان هناك عنصر آخر هام جداً، فى تلك الفترة..

المغتربون..

شباب عرب، من دول مختلفة.. وجنسيات مختلفة، كلهم كانوا يلتحقون بالجامعة دون شرط المجموع، ويدفعون بالدولار، ولديهم انطباع عجيب بأن (مصر) بلد فاسد مُنحل..

ولأن إمكانياتهم المادية كانت أكبر وأعلى، كانوا يحاولون استغلال المصريين، لبلوغ أهدافهم، ولكن الواقع أننا كنا نستغلهم ونستغل إمكانياتهم، لتحقيق رغباتنا نحن..

وتطوّرت العلاقات، وزادت الخمور والمخدرات، دون أدنى إحساس بالذنب..

بل على العكس، كان هناك شعور عجيب بالفخر والزهو، لم أُدرك خطأه، إلا الآن..

ومع التطوّر، ارتبطت فى ذهنى المخدرات بالجنس، وهذه مشكلة كبيرة جداً، فالشائع فى (مصر) أن المخدرات تجعلك أقوى جنسياً، ربّما لأن المخدرات تثبط بعض مراكز المخ، وتُطلق العنان لكل الرغبات، وهذا هو التفسير العلمى والطبى الوحيد، إذ أنها لا تأثير لها إطلاقاً على زيادة القدرة الجنسية فعليّاً..

وكانت هناك أيامها بدعة، من بعض المثقّفين، تقول إن المخدرات ليست حراماً كالخمور، كما كانت بدايات الحبوب المخدرة، التى تناولت بعضها ذات يوم، وكادت تدمّرنى تماماً..

وهنا لى وقفة خاصة مع الآباء..

ربّما تكون قد عانيت فقراً أو حاجة فى طفولتك وصباك، ولكن هذا لا يعنى أن تُغدق على أبنائك بلا حساب، فالمال الوفير كان واحداً من أهم الأسباب، التى دفعتنى إلى ذلك الطريق غير القويم..

ولست أُحرضك هنا على حرمان أبنائك أيضاً، أو على معارضة كل ما يرغبون فيه، أو حتى الشك الدائم فيهم..

امنحهم ما يرغبون فيه، وفقاً لإمكانياتك، دون تقتير أو إسراف..

وأشرف على كل هذا بنفسك..

وهذا هو الأهم..

دعنا نعود إلى الكلية، وما حدث فيها..

لقد كان التمثيل وسيلة ممتازة بالنسبة لى، لتكوين علاقات جديدة، وما زلت أذكر مسرحية، استعانت فيها الكلية ببعض بنات مدرسة التمريض، وكانت فرصة مثالية بالنسبة لى، حتى أن أمين اللجنة الفنية آنذاك، والمشرف على المسرحية، (والذى صاغ كل ما تقرأه الآن)، كان شغله الشاغل هو إيقاف ما يحدث وراء الستار، والفصل بين القوات المتحاربة..

أقصد المتعانقة..

وتحضرنى هنا واقعة طريفة، كان بطلها مطرب شهير جداً الآن، من نفس بلدتنا، أراد أمين اللجنة الفنية الاستعانة به، للغناء فى الحفل، وكان أيامها شاباً صغيراً، يحبو بالكاد فى مجال الغناء، ولكنه طلب ثلاثون جنيهاً كأجر له، إلا أن أمين اللجنة أخبره أن الميزانية المتاحة كلها هى ثلاثة جنيهات، فثار وهاج وماج، وأعلن أن هذا ليس قيمته وسعره..

ثم وافق فى النهاية، بشرط أن نهديه أمام الناس مصحفاً قيِّماً، ولأن المبلغ لا يكفى، قام بشراء المصحف على نفقته الخاصة..

ومن المؤكد أنه سيعرف نفسه فى هذه السطور..

والعجيب أن التمثيل وشهرته المحدودة، فى نطاق الكلية أو الجامعة، قد جلب لى واحدة من أغرب العلاقات، التى ارتبطت بها حينذاك..

علاقة مع طالبة بكلية الطب، تصغرنى بعامين أو ثلاثة، ولكنه جريئة إلى حد مدهش، ولديها لهفة جنسية بلا حدود..

هى الآن طبيبة متزوِّجة، ولديها أبناء، ولكن أيامها كانت رغباتها متأجِّجة

بشكل لم أر مثله، فى حياتى كلها، حتى أنها كانت تقتحم مجلسنا فى (الكافيتيريا) وتطلب منى فى جرأة ووضوح أن أخرج معها، لأنها استطاعت توفير مكان لنا، لنمارس فيه متعتنا..

وعند عودتنا، كانت تُبدى سعادتها واستمتاعها، ولا مانع لديها من إخبار شلة الأنس بعدد المرات التى فعلنا فيها هذا..

ولم يكن هذا يُغضبنى بالطبع، بل كانت جرأتها وصراحتها تُرضينى تماماً، لأنها تُعلن للكل تفوّقى وزعامتى فى هذا المضمار..

ولكن تلك العلاقة انتهت بمشكلة كبيرة وعنيفة، طالبتنى هى بعدها بالزواج، الذى لم يكن لدى أدنى استعداد له..

ليس من ناحية التقاليد الشرقية العريقة، التى تدفع الشاب إلى رفض الزواج من فتاة ربطته بها علاقة جنسية، ولكنه كان رفضاً عاماً، فلم يكن لدى استعداد نفسى للزواج، كما لم تكن لدى أية عاطفة تجاهها..

أو تجاه أية فتاة أو امرأة أخرى..

بل يمكنك القول بأننى لم أشعر بأية عاطفة، تجاه أية أنثى، منذ وعت عيناى الدنيا، وحتى هذه اللحظة..

إننى لا أفهم حتى ما الذى يعنيه الناس بكلمة، الحب هذه، فلم أشعر فى حياتى كلها أننى أحب امرأة ما.. حتى زوجتى، ارتبطت بها ارتباطاً عائلياً رسمياً، لأنها كانت تناسبنى.. من وجهة نظرى أيامها..

وطالبة كلية الطب بالذات لم أكن أشعر تجاهها بأية عاطفة، بل كانت بالنسبة لى مصدراً دائماً للإشباع الجنسى، ووسيلة للزهو أمام رفاقى وشلتى..

حتى جاء عام ١٩٧٥م..

ففى ذلك العام، حدث تحول خطير فى حياتى..

خطير جداً..

* * *

مع مقدم عام ١٩٧٥ م، بدأت (مصر) تخطو خطواتها الأولى، نحو انفتاح اقتصادى، افتقرت إليه طويلاً، وراحت عشرات القيود القديمة تنهار، وعشرات الأبواب تنفتح أمام الرزق الحلال..

ومن بين هذه الأبواب، كان باب السفر للعمل خارج البلاد..

وعبر هذا الباب، سافر أبى إلى (السعودية)، بعد أن حصل على وظيفة كبير مهندسين هناك، بعقد مدته ست سنوات..

ولأن ثقته فى شخصى كانت كاملة، فى ذلك الحين، فقد قام بفتح حساب لى فى البنك، باسمى طبعاً، حتى يقوم بتحويل نقوده إليه، بحيث أتولى أنا مسئولية الإنفاق على البيت، وراح يؤكد لى أن أمى وأختى أمانة فى عنقى..

كان المفترض أن يصحو ضميرى مع كلماته وحنانه وحماسه، إلا أننى كنت أستمع إليه، وكأننى أستمع إلى موضوع إنشائى مكرر، فقد كنت أحيا فى عالم آخر، وواد غير الواد، وكنت منفصلاً –عملياً– عن المنزل كله، وأضع ستاراً على ذلك الجانب المظلم، الذى أحيا فيه باستمرار..

المهم أن والدى قد سافر إلى عمله، وترك القط مع مفتاح الكرار..

والواقع أننى قد شعرت بالارتياح الشديد لسفره، فأيامها كانت وسائل الاتصال محدودة للغاية، وكنا ننتظر ثلاثة أو أربعة أيام، منذ طلب مكالمة دولية، وحتى إجرائها بالفعل.. حتى التلكس لم يتوافر إلا فى عام سفره الأخير..

ولأننى أصبحت المسئول عملياً عن البيت، فقد تقمصت صورة رجل البيت، ورحت أحيا كما أريد، فأبلغهم أننى أستذكر دروسى مع أحد زملائى، وأبيت خارج المنزل يومين أو ثلاثة..

ومع بدء تحويلات الأموال من (السعودية)، بدأت حياتى تتخذ منحنى جديداً، وقوياً..

الجموح

لقد أصبحت أمتلك كماً لم يخطر ببالى قط من الأموال والنقود، مع حرية بلا حدود، وفرص للفساد أكثر من عدد شعر رأسى..

ولأننى لم أجد بُغيتى فى كلية الطب، فقد قررت نقل ساحة القتال إلى كليات الآداب والتجارة والتربية..

وكان هذا يُحقق لى ثلاثة امتيازات كبرى..

فكونى طالب بكلية الطب، كان يُحيطنى بهالة خاصة، فى تلك الكليات، ويمنحنى فرصة أكبر لتكوين صداقات وعلاقات..

ثم إن بنات هذه الكليات، كن أقل تعقيداً أو أكثر انفتاحاً، من بنات كلية الطب..

ولكن النقطة الأكثر أهمية، هى أن سمعتى كانت قد بلغت حداً مؤسفاً فى كليتى، وكان من الضرورى والحتمى أن أنتقل إلى ملعب آخر، وساحة أخرى..

والعجيب أننى، وعلى الرغم من كل هذا، كنت أواصل النجاح فى الكلية، بدرجة (جيد)؛ فقد كنت أحيا بالطول والعرض، حتى شهر مارس، وبعدها أُغلق الأبواب على نفسى، وأذاكر باستمامة، حتى الامتحانات فى شهر مايو..

ومع حنفية الأموال، التى تتدفق من (السعودية)، توسعت دائرة علاقاتى وسهراتى، وأصبحت أقضى ليالى الأنس فى (القاهرة) و(الإسكندرية)، وأُنفق ببذخ غير طبيعى، حتى أننى كنت أُنفق ما بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ جنيه فى السهرة الواحدة، وهذا يزيد عن ألف وخمسمائة جنيه، بمقاييس هذا الزمن..

لذا فقد بدأت أرتبط بطبقات اجتماعية أعلى، وفئات (مرتاحة) مالياً، مثل المغتربين وأبناء رجال الأعمال، كما تطورت علاقاتى، وبدأت فى عقد ارتباطات جنسية كاملة مع نساء متزوجات، من طبقات راقية جداً..

مزيج مدمر مائة بالمائة.

حرية.. نقود.. نساء.. خمور.. مخدرات..

وكان من الطبيعى أن أقفز إلى مرحلة من الجموح، لم تشهدها حياتى كلها..

مرحلة كل شئ فيها ممكن ومتاح..

كل ما عليك هو أن تفكر.

وتقرر..

وتنفذ..

وفى تلك الفترة من حياتى، كانت لى تجربة كبيرة وغريبة جداً..

فلأربع سنوات كاملة، ارتبطت بامرأة متزوجة، تُقيم فى مدينة قريبة من مدينتى، وكنا نلتقى فى شقة مفروشة فى مدينتى الصغيرة، ونقضى ليلتين أسبوعياً بين ذراعى بعضنا البعض..

وكانت هى جرينة للغاية، تأتى إلى بلدتى، ونقضى اليوم كله بصحبتى، ثم تتصل بزوجها فى المساء، وتُخبره أنها قد تأخرت فى العودة، وستقضى الليل مع إحدى قريباتها..

والعجيب أن قريبتها هذه كانت تؤيد قولها، وتبذل كل جهدها لإخفاء علاقتها بى عن زوجها..

كان هذا يحدث يومى الأحد والأربعاء من كل أسبوع..

وطوال السنوات الأربع، كان هذا يُسعدنى ويُرضينى جداً؛ لأن امرأة ناضجة جميلة مثلها، تترك زوجها وأبناءها، فقط لتقضى ليلتها بين أحضانى..

أضف إلى هذا أنها لم تكن تأخذ منى قرشاً واحداً، بل كانت تحضر معها أحياناً الطعام والشراب، وتغضب بشدة لو عرضت عليها ثمن ما تحضره..

ولكن، وعلى الرغم من سعادتى هذه، لم يتوقف عقلى عن التفكير فى الأمر أبداً..

فأنا شاب (صايع)، ويمكننى أن أفعل أى شئ، للفوز بامرأة ما، وهذه المـرأة ترضينى جدًا، وإلا ما استمرت معى أربع سنوات كاملة، فأنا لا أؤمن بالحب، ولا أشعر به، ولم أشعر به لحظة واحدة، فى حياتى كلها..

أما هى، فامرأة متزوجة من رجل غنى، وابن عائلة كما يقولون، وهو جميل الطلعة، واضح الرجولة، وهى نفسها اعترفت لى بأنه قوى جنسياً، ويرغب فيها طوال الوقت، ويُحسن معاملتها أيضاً، اجتماعياً وجنسياً..

فلماذا تخونه معى إذن؟!

أهى مجرد نزوة؟!

أم رغبة فى المغامرة؟!

ولكن هل يمكن أن تدوم نزوة أو مغامرة لأربع سنوات كاملة؟!..

ولقد ناقشتها فى هذا مباشرة، ذات ليلة باردة من ليال الشتاء، جمعنا فيـــها فراش واحد، وكل ما حصلت عليه منها، هو أنها تشعر بجمالها وأنوثتها، وترى أنها تستحق من هو أفضل كثيراً من زوجها، على الرغم من أنها قـــد تزوجّتـه بإرادتها، ولم يُرغمها أحد على هذا..

وربّما يعنى هذا أنها إنسانة سيئة..

ولكننى كنت شخصاً سيئاً أيضاً..

فماذا يهم؟!..

والمبرِّر الوحيد الذى أخبرتنى به، هو أنها تحبنى، وتفعل كل هذا مـن أجـل حبى..

وهذا هو السبب الرئيسى، لعدم إيمانى بالحب..

إنه الحجة الجاهزة، لتجاوز كل القيم والقواعد والأعراف..

فلو أنها تحبنى حقًا وتكره زوجها لأى سبب، كان ينبغى لها أن تطلـب منـه

الطلاق، ولكنها لم تفعل..

الحب كان مبررًا للخيانة فحسب..

وعندما تصوَّرت أننى قد فهمت مبرِّراتها، فاجأتنى هى بمطلب غريب، ربّمـا يُشير إلى مبرِّر آخر، لم أستوعبه بعد..

فذات ليلة، طلبت منى بغتة أن أعاشرها فى منزلها، وبوجود زوجها..

ولقد أذهلنى هذا المطلب وصدمنى، وصرخت فيها مستنكراً، وكأنّما ألقت فى وجهى قنبلة، ورفضت هذا المطلب فى حدة..

ولكنها واجهتنى بصلابة وعناد عجيبين، ووضعت علاقتى بـــها فـــى كفـة، ومطلبها العجيب الشاذ هذا فى كفة أخرى، وصاحت بأنها قد احتملت (المرمطة) معى فى شقق مفروشة لسنوات، فكيف أرفض تنفيذ أوّل مطلب لها؟!..

وصدمنى الأمر أكثر وأكثر..

ما ذنب زوجها، لتفعل به هذا؟!..

ألا يكفيها أنه يترك لها الحبل على الغـــارب، ويُرضيـــها ماليـــاً واجتماعيـاً وجنسياً؟!..

لماذا هذا الافتراء والجبروت؟!..

إنه حتماً انتقام من شئ ما..

من أمر أجهله..

ولم تخبرنى هى به قط..

ولأننى لم أكن أُدرك الأبعاد القانونية لما سأفعله، ولأننى خشيـــت أن أفقدهـا برفضى، فقد وافقت على مطلبها الجنونى هذا، وكل ذرة فى كيانى ترتجف خوفاً وقلقاً..

كنت أخشى ما سأفعله، ولكننى أخشى أكثر أن أفقد ما تمنحنى إياه من متعة، على الرغم من أننى كنت أيامها على علاقة بامرأتين أخريين، ولكن ليس بنفس القوة والمتعة..

كان موعدنا فى الواحدة صباحاً.. فى منزلها، فى البلدة التى تبعد عن بلدتى عشرين دقيقة، قطعتها بالسيارة وقلبى يرتجف فى صدرى، ودقاته تكاد تُسمع على بُعد عشرة كيلو مترات..

وأمام منزلها، جلست داخل سيارتى أرتجف..

وأنتظر..

كانت الإشارة المتفق عليها أن تقف فى الشرفة..

وكان هذا يعنى أن زوجها وأولادها نيام، وأنه يمكننى الصعود إليها..

ولقد أخبرتنى فيما بعد أنها، لكى تضمن نوم زوجها، قضت نصف ساعة فى أحضانه حتى هدأ، وغرق فى نوم عميق..

وبعدها خرجت لتُشير إلىّ فى الشرفة..

وعندما أشارت، تحولّت ارتجافاتى إلى كتلة من الرعب..

فالمنزل الذى تُقيم فيه هو منزل الأسرة..

شقيقها يُقيم فوقها..

وأمها أمامها..

وزوجها وأولادها نائمون فى بيتها..

وعندما وصلت إليها، وجدتها تنتظرنى فى لهفة، وانحنت تخلع حذائى، ثم أخذتنى من يدى إلى حجرة الصالون..

وهناك ألقت نفسها بين ذراعى، وكل ذرة فى كيانها تصرخ باللهفة والرغبة..

ولكننى فشلت..

لأوّل مرة فى حياتى كلها، أفشل مع امرأة..

الهول فى أعماقى منعنى تماماً من التجاوب معها..

وحاولت هى..

وحاولت..

وحاولت..

حتى مطلع الفجر..

ولكننى فشلت معها تماماً هذه المرة..

ومع فشلى، فوجئت بها تتحولّ إلى كتلة ملتهبة من الغضب والثورة، لأن هدفها لم يتحقق، وارتفع صوتها، حتى أننى سارعت بالفرار، وغادرت منزلها، وهرعت إلى سيارتى، وبها إلى بلدتى، وكل خلية فى جسدى فى حالة انفعال شديد..

وبعد تلك الليلة لم تعد علاقتنا كما كانت قط..

لم تعد هى بنفس الإقبال والعطاء، وكأنّما فقدت حبها -الذى توهّمته- لى، عندما لم أستطع تلبية رغبتها ليلتها، حتى وإن أمكننى هذا عشرات المرات فيما بعد..

فى بيتى أنا..

أقصد شقتى المفروشة..

وأدركت أن بداخلها رغبة غامضة فى الانتقام من زوجها..

فى إذلاله والانتصار عليه، بشعورها أنها قد خانته فى منزله..

وفى وجوده..

وبعد فترة، انتهت علاقتى بها تماماً..

ولم أرها منذ ذلك الحين..

ولأكثر من عشرين عاماً..

كانت علاقة قوية طويلة فى حياتى، وأساسية، ومنتظمة..

ولكنها انتهت كغيرها..

انتهت وتركت بداخلى التساؤل نفسه..

لماذا خانت زوجها؟!..

لماذا فعلت به ما فعلته؟!..

ثم لماذا تهوى العلاقة بين زوج وزوجته إلى هذا الحضيض..

التفسير الوحيد عندى، هو أن زوجها قد منحها كل ما تريد، فى كل المجالات، وأزال كل حواجزه تجاهها..

ولكنه لم يبذل جهداً لإزالة حواجزها تجاهه..

وهى أيضاً لم تبذل جهداً لفهم مشاعره وطبيعته، وإزالة حواجزها تجاهه..

ولهذا لم ينجح أحدهما فى الالتقاء بالآخر، أو بلوغ منطقة (Mid Point) ولم تفتح هى قلبها للقائه..

ولم يحاول هو أيضاً السيطرة عليها، وإشعارها بأنه الرجل، والقوّام على أمرها..

وهذا درس تعلمته، فى تلك المرحلة من العمر..

مهما بلغت قوة من أمامك، كن أكثر قوة وعناداً وصلابة منه..

وخصوصاً مع النساء..

لو حاولت امرأتك أن تُريك العين الحمراء، أبرز لها عينك (النبيتى)..

سيطر عليها أولاً، ثم امنحها ما تريد من حقوق فيما بعد..

اجعلها تشعر أنك تتمتع معها، كما لو أنك مع كل نساء الأرض..

وامنحها الفرصة لتخرج كل طاقاتها..

وكل رغباتها..

وذلك حتى تشعر هى أيضاً، أنها مع كل رجال الأرض..

المهم أن هذه الحياة الحافلة، بكل أنواع المفاسد والتجاوزات، قد استمرت لعدة سنوات، وأنا لاه تماماً، أُقيم عشرات العلاقات، وأنفق كل ما يقع تحت يدى من أموال، دون ضابط أو رابط، حتى إن أحد أصدقائى، ممن ولدوا وفى فمهم ملعقة من ذهب، قد انزعج ذات يوم من كم إنفاقى، وأخبرنى أنه هو (المليونير)، لا يمكنه مجاراتى بهذا البذخ..

ثم جاءت الصفعة بغتة..

لقد قرّر والدى إنهاء عقده فى (البلد العربى)، والعودة نهائياً إلى (مصر)، لحضور حفل تخرُّجى من كلية الطب..

ولم يكن هذا فى الحسبان أبداً..

أو أننى كنت مُغيّباً عن واقعى، فيما أنا فيه..

بل يبدو أننى لم أكن أتوقّع عودته، قبل قرناً من الزمان على الأقل..

وفى ذلك العام بالذات، من دون أعوام دراستى كلها، وعلى الرغم من أننى قد حصلت فى العام السابق على تقدير جيّد جداً، فوجئت بملحق فى البكالوريوس.

والدى، الذى حضر خصيصاً لحفل تخرجى، فوجئ مثلى بالنتيجة، ولكنه عاملنى بحنان وديموقراطية، وقال إنه لا يهتمّ بنجاحى.. المهم ألا أشعر بكل هذا الحزن..

والواقع أن نصف حزنى كان لسبب آخر تماماً..

فمنذ عاد والدى، وهو يسمع الكثير من القصص، حول انحرافاتى وأخبار فسادى، من كل من يعرفه، ولكنه يصمّ أذنه عن كل هذا، لأنه كان يثق فىّ ثقة مطلقة، عمياء..

ولكن ماذا سيفعل، عندما يسأل عن نقوده.. شقاء عمره، الذى ضحى من أجله بعدة سنوات فى الغربة؟!..

ولم يكن من الممكن أبداً، بأى حال من الأحوال، أن أتفادى هذه المواجهة، فما هى إلا أيام، وبدأ أبى يُطالبنى بنقود من حسابى فى البنك، الذى حوّل إليه كل مدخراته..

حاولت التعلّل بعدة أمور ليوم أو يومين، ثم ذهبت إلى شلتى (الصايعة)، وعرضت عليهم المشكلة..

ولقد أبدوا جميعهم استعداداً للمعاونة، حتى أن أحدهم حاول بيع سلسلة ذهبية يرتديها، ولكن كل ما عرضوه لم يكن ليكمل مائتين أو ثلاثمائة جنيه.

وكانت ليلة سوداء، أقبلت فيها على المخدرات فى نهم، كمحاولة لتغييب عقلى عن المشكلة، حتى أننى عدت إلى المنزل فى حالة سيئة للغاية..

وكانت صدمة عنيفة لأبى، أن يرانى فى هذه الحالة..

وكانت ليلة لن أنساها أبداً..

ولكن الصباح التالى كان أسوأ منها ألف مرة..

فلقد اصطحبنى أبى إلى البنك، وأمرنى أن أطلب كشف الحساب..

وكانت صدمة عنيفة له، لست أدرى، حتى هذه اللحظة، كيف أمكنه احتمالها..

الرصيد المتبقى كله كان خمسة وخمسين جنيهاً فقط..

ثمن كل سنوات الغربة..

والشقاء..

والعذاب..

وخيبة الأمل..

وكما يقول المثل، تمنيت فى هذه اللحظة أن تنشق الأرض وتبلعنى، وهو ينظر إلىّ فى صمت وأسى ومرارة وندم، قبل أن يقول:

- حسبى الله ونعم الوكيل فيك.. لو أنك ما زلت تبقى على جزء واحد من أبوتى لك، فلا تجعلنى أرى وجهك ثانية أبداً.

كان من الطبيعى أن يُطالبنى بهذا، دون ذرة واحدة من الرحمة، بعد أن أضعت بنزوات حمقاء مجهود وأمل عمره كله..

بل أمل الأسرة كلها فى حياة هادئة آمنة مستقرة..

وكانت مأساة حقيقية لأبى، الذى فُجع فى ابنه الوحيد، وأمله فى المستقبل، وتحطّمت فى أعماقه أشياء كثيرة، كادت تفتك بكل ما آمن به، فى عمره كله..

والأكثر مأساوية أنه كان قد أنهى تعاقداته تماماً فى (السعودية)، وعاد بصفة نهائية إلى (مصر)، متصوّراً أنه قد ادخر ما يكفى، لتوفير حياة كريمة لنا جميعاً..

ولم يكن أمامه، والحال هكذا، سوى أن يجرى كل ما أمكنه من اتصالات، حتى نجح فى الحصول على عقد جديد مدته عامين فحسب، وبوظيفة مماثلة تقريباً، ويكفى أن تعلم أنه قد قضى العامين بأكملهما، دون العودة ولو ليوم واحد، لكى يدخر ما يكفى، وأنه ما زال يحيا بعائد ما ادخره، منذ عام ١٩٨٠م، وحتى أيامنا هذه..

هل أدركت الآن كما أنفقت أنا من أموال، أثناء غيابه؟!..

وكم كانت صدمته؟!..

وصدمتي..

فعندما تركت المنزل، وذهبت للعيش مع بعض أفراد شلتي المغـتربين، كـان هذا يعني إسدال الستار على تلك المرحلة..

وبدء مرحلة جديدة..

ورهيبة.

* * *

الانكسار

ذهبت السكرة، وجاءت الفكرة..

هذا ما جال بخاطرى، وأنا أبدأ تلك الفترة العصيبة من حياتى، والتى لا يمكننى أن أنساها أبداً..

فبعد ما حدث، أسقطنى والدى من حساباته تماماً، وتعامل باعتبار أنه لا وجود لى، ولم يعد ينفق علىّ مليماً واحداً، وإن كان قد ترك الباب خلفه موارباً، عندما سافر مرة إلى (السعودية)، فى محاولة لالتقاط خيط الأمل الأخير..

أمى وحدها منحتنى نوعاً من الدعم المالى سراً، فى محاولة منها لمعاونتى على اجتياز تلك المحنة، والحصول على شهادة البكالوريوس، حتى أتخرّج، ويمكننى الاعتماد على نفسى (كما تصورّت)، على الرغم من أن مرتب الأطباء أيامها لم يكن يتجاوز (٣٧ جنيهاً لا غير)!!..

ولقد وضعنى هذا فى حالة سيئة للغاية، وخاصة بعد تلك السنوات، التى قضيتها أحيا كالملوك..

ومن حُسن حظى أن أنواع المخدرات العنيفة، الموجودة حالياً، مثل الهيروين والكوكايين وغيرها، لم تكن معروفة فى تلك الأيام، وإلا لكانت قد قضت علىّ تماماً؛ لأنها مدمرة، وتسحق الإرادة والجسم والعقل..

ولكننى، ولسبب ما، كنت قادراً على احتمال الموقف..

وتجاوزه..

ولقد علمتنى تلك الأيام أن النعمة لا تدوم، وأنه لابد وأن يظلّ المرء دوماً على أهبة الاستعداد، لمواجهة أية تغيرات عنيفة ومباغتة..

ونصيحة أُقدمها فى هذا الموضع، لكل أب وأم..

لا تتخلّى عن ابنك أبداً، مهما كانت تجاوزاته..

عاقبه.. اضربه.. مزقه.. ولكن لا تلقه بعيداً عنك أبداً..

لا تتركه لرفاق السوء، وظلام الطرقات، ووحشية الغضب والوحدة والضياع..

المهم أننى تخرّجت، فى ظلّ هذه الظروف، وبعد عدة أشهر من الإحساس بالفشل، مع تسلّم كل زملائى وأصدقائى لوظائفهم، وحملهم لقب طبيب امتياز، وأنا ما زلت أحمل لقب طالب..

وكانت أوّل رغبة لى بعد التخرُّج، هى أن أعمل فى بلدة أخرى غير بلدتى، حتى لا أشعر بالنقص مع زملاء دفعتى الذين سبقونى..

وحتى يمكننى أن أُحقق أيضاً ذلك التوازن المطلوب، مع وجودى خارج البيت، واضطرارى للاكتفاء بمرتب طبيب الامتياز المحدود..

فلقد أقمت بصفة كاملة فى المستشفى.. أتناول طعامها، وأنام على أسرّتها، وأسهر فى طرقاتها، باستثناء بعض الأيام النادرة، التى كان فيها أحد رفاق الماضى يأتى لزيارتى، ويصحبنى إلى سهرة خارجية، يعيدنى بعدها إلى المستشفى..

ولقد تغلبت أيضاً على مشكلة العلاقات الجنسية هناك، وأقمت عدة علاقات مع الممرضات فى المستشفى..

والواقع أن هذه العلاقات بالتحديد لقنتنى درساً قاسياً..

فلو أنك فى موقع عملك، ووجدت فرصة لإقامة علاقة مع (مارلين مونرو) نفسها فلا تفعل أبداً، لأنه فى يوم ما، ستستغل هى هذه العلاقة للسيطرة عليك، أو للحصول على امتيازات خاصة عن طريقك..

ابتعد دائماً عن عملك ومسكنك..

بقدر الإمكان..

المهم أنها كانت فترة عصيبة جداً، ولكننى وظفت كل الإمكانيات المتاحة

لتجاوزها، حتى يمكننى الاعتياد عليها، والتكييف على ظروفى الجديدة..

ولكن الفضائح والمشكلات توالت..

والممرضات تمادين جداً فى الأمر..

والعجيب أننى كنت أخفى علاقتى بالواحدة منهن، فتبادر هى بإعلانها فى زهو، لتفاجئها أخرى بأنها أيضا على علاقة بى..

وعندما قاربت فترة الامتياز الانتهاء، كان الأمر قد بلغ حدا لا يمكن احتماله، بأى حال من الأحوال..

لذا، فقد طلبت تكليفى فى واحدة من محافظات الصعيد، كوسيلة للفرار من كل هذا، وتحقيق بعض العائد المادى أيضا..

وعندما ذهبت إلى هناك، كنت أتصور أننى سأغرق فى محيط من الظلمات والجهل والانغلاق..

ولكن الصورة التى رأيتها كانت مختلفة تماما..

لا يمكنك أن تتصور كم الفساد والموبقات، التى رأيتها هناك، والتى تحدث خلف الستار، بأكثر مما تحدث فى (القاهرة)، وأن مصيبة المجتمعات المغلقة تفوق مثيلتها فى المجتمعات المفتوحة..

وهناك تعلمت معنى الحكمة القائلة: "لا تكن لينا فتعصر، ولا صلبا فتكسر"، فلا ينبغى أن تكون متشددا، بحيث تحدث الأمور من خلف ظهرك، ولا متسيبا، بحيث تحدث أمامك..

وسألت نفسى هناك أيضا: لماذا يختلف مظهرنا دوما عن جوهرنا؟!..

لماذا لا يكون ما بداخلنا هو نفسه ما نبدو عليه؟!..

لقد سافرت كثيرا، ورأيت كيف يختلف الأجانب عنا، فى أنهم واضحون مباشرون، لا يخفون ما ينبغى أن يبدوه، والعكس بالعكس..

فلماذا لا نصل نحن لمعادلة أكثر توازناً؟!..

ألا نخجل مما نفعله، أو نفعل ما نخجل منه..

وأن نتخلى فى أعماقنا وعقولنا عن نظرية الحجرات المغلقة، التى نحبس خلفها كل مشاعرنا وطبيعتنا، ونجعل فى كل منها كياناً قائماً بذاته، بحيث لا نواجه أى موقف، إلا من خلال منظور واحد، قد يتعارض تماماً مع منظورنا، فى مواجهة موقف آخر، هذا لأن تلك الحجرات فى عقولنا معزولة، لا يمكننا فتحها كلها فى آنٍ واحد، أو حتى العبور من واحد إلى آخر..

باختصار.. هى نظرية (دى نقرة ودى نقرة)..

فنحن شياطين فى موقف ما، وملائكة فى موقف آخر..

وأكبر دليل على هذا هو أنه، عندما يُهاجر أحدنا إلى مجتمع آخر، ويتحرَّر من كل تعقيدات وتركيبات مجتمعنا، فإنه ينطلق ويتطوَّر، ويُحقِّق نجاحات ننبهر نحن بها هنا..

وما أقوله هو تجربة شخصية..

تجربة شخص، يعتبر نفسه مجرَّد إنسان عادى فى المجتمع..

ولقد قضيت فترة التكليف فى بلد فى أقصى جنوب (مصر)، وجاء عملى فى وحدة ريفية فى حضن الجبل، ليس بها مياه أو إضاءة، وهذا فى عام ١٩٨٣م..

وكان النظام هناك فاشل للغاية..

الحكومة تقول: إن الوحدات الصحية هى عيادات خاصة مجانية، وهذا لا يحدث فعلياً، وإنَّما يتم إهدار المال العام، للمحافظة على مظهر زائف فحسب، والأطباء يضطرون للتجاوز، لأن ظروفهم هناك صعبة جداً، والمال السايب يُعلم السرقة أيضاً..

أضف إلى هذا غياب الرقابة، إلا فى أدنى نطاق ممكن.

لقد كنت الطبيب البشرى الوحيد، فى مربع تعداد سكانه أربعين ألف نسمة، ولا أذكر أننى اضطررت لتحويل ثلاثة أو أربع حالات فحسب إلى مستويات طبية أعلى، خلال تسعة أشهر، هم كل الفترة التى قضيتها هناك..

وكنت أتعامل بأشرف وسيلة ممكنة، فبعض الأطباء الآخرين كانوا يقومون ببيع أدوية الحكومة للمرضى، الذين يتصوَّرون أن هذا أمر طبيعى..

أما أنا، فقد كان دخلى حوالى ٨٠٠ جنيه، فى الشهر الواحد، بدون بيع أدوية، وكان هذا مبلغاً ضخماً أيامها، حتى أننى كنت أعود من هناك إلى (القاهرة) بالطائرة، أو بالقطار الفرنساوى، إذا ما أردت تدخين بعض المخدرات فى الطريق..

وهناك قمت بأشياء لا يمكن أن يتخيلها طبيب عادى..

لقد أجريت عملية بتر إصبع، على ضوء لمبة جاز، بدون أى تعقيم، بخلاف صبغة اليود..

وبالطبع كانت لى علاقات جنسية هناك، ولكن مع الممرضات، وليس مع الأهالى، مع أن هذا كان ممكناً، على الرغم من كل ما تتصوَّره عن الصعيد..

الجنس غير الشرعى متوافر هناك أيضاً، كما هو متوافر فى الوجه البحرى، ولكن نوعية النساء هناك لا تروق لى، فأنا أميل إلى طقوس وثياب معينة، لا تتوافر عندهن..

ولقد كنا ننهى عملنا فى الواحدة تقريباً، ثم أحمل زجاجة خمر، وأقضى سهرتى مع الأطباء، وكنا نُمارس الجنس فى المستشفى، والغفير يعلم ما نفعله، ويأخذ خمسة جنيهات، ليقوم بحراسة الباب حتى ننتهى..

وكان هذا يعنى أننى لم أتعلّم من تجربة الامتياز..

ومن علاقاتى السابقة بالممرضات..

أو يبدو أن رغباتى كانت أعنف من أن توقفها المخاوف والتجارب..

أيا كانت..

والعجيب أننا لم نكن الوحيدين، الذين يتجاوزون الحدود هناك، فمهندسو الرى كانوا يزرعون المخدرات فى الاستراحات الحكومية..

أنا شخصيا حصلت منهم على أفيون خام، زرعوه للاستخدام الشخصى..

وقد يدهشكم أننى قد اضطررت مرة لتزوير تقرير رسمى..

ويطلب من وزارة الداخلية نفسها..

ولهذا قصة..

فذات ليلة، جاءنى خفير فى الوحدة الصحية، ليبلغنى أن ضابطا برتبة ملازم أول شرطة من المركز، جاء لرؤيتى، فطلبت منه إحضاره على الفور، وكانت الساعة حوالى الثانية والربع صباحا..

وعندما التقيت بالضابط، أخبرنى أن جثة قد رسيت فى زمام مسئوليتى، ويريد منى فحصها، لاستخراج تصريح دفن..

وخرجت مع الضابط، بصحبة ثلاثة مخبرين، واثنين من العمال، والخفير، وذهبنا إلى حيث الجثة، وطلبت من المخبرين انتشالها، ولكنهم خافوا أن يفعلوا، فانتشلها العاملان، ورحت أنا أفحصها..

وكان من الواضح أنها حادثة قتل..

جرح قطعى بآلة حادة، فى الشفة العليا، وتجمع دموى قاتل فى الجبهة..

وكتبت تقريرى بما رأيته، وسلمته للضابط، الذى حمله بمنتهى البراءة إلى المركز، باعتبار أن الأمر قد انتهى عند هذا الحدّ..

وقبل مضى ساعة، فوجئت بهم يوقظوننى ثانية، ووجدت المركز كله فى الوحدة، المأمور.. الضابط.. رئيس المباحث..

وقال المأمور: إن التقرير الذى كتبته يحمل شبهة جنائية، وهذا يحتاج إلى إجراءات وتحقيقات، ولا يمكنه القيام بهذا، فى ظروف الصعيد وتعقيداته، ثم طلب منى اعتبار أن الجروح والإصابات الحادثة مصدرها الارتطام بشجرة أو أعشاب نيلية..

وفزعت بالطبع، ولكن الضباط أيدوا قول المأمور، وكذلك رئيس المباحث، وراحوا كلهم يحثوننى على كتابة التقرير بهذا المضمون، لتفادى المتاعب، وأكَّدوا لى أن الأمر سيمر بسلام، لأن أحداً لن يبلغ بما حدث أبداً، كعادة أهل الصعيد..

وتحت هذا الضغط، كتبت التقرير الجديد..

وانتهى الأمر بالنسبة لهم..

وليس بالنسبة لى..

لقد ترك فى داخلى مرارة عجيبة، وتوتراً لا ينتهى، وتمنيت لو أننى لم أنفذ ما أرادوه، ولم أكتب التقرير الآخر..

ولكن ما حدث قد حدث..

وحاولت الاستمرار بعدها فى العمل، بنفس الأسلوب والإيقاع، لولا حركة واحدة، قام بها تومرجى الوحدة، قلبت كيانى كله رأساً على عقب..

فذات يوم، وفى الثانية ظهراً، أتى التومرجى ليخبرنى أن لديه كشفاً خاصاً، وأن أصحابه قد حضروا خصيصاً من قرية مجاورة، بناءً على شهرتى هناك، ووضع مبلغاً فى جيبى، وهو يبتسم ابتسامته اللزجة، مؤكداً أن هذا هو ثمن الكشف..

وقمت بالكشف عليهم فى بساطة، ثم نسيت الأمر كله حتى المساء، عندما وضعت يدى فى جيبى ووجدت أربعة جنيهات وخمسة وستين قرشاً..

ولقد أدهشنى الرقم، فاستدعيت التومرجى، وسألته لماذا لم يكن الكشف أربعة جنيهات ونصف، أو حتى خمسة جنيهات، فأجابنى ببساطة أن هذا كل ما كان يحمله المريض وكل من معه..

وأصابنى الذعر، وأنا أسأله: ألم تقل إنهم من قرية أخرى؟!.. ألم تترك لهم حتى أجر العودة..

وبكل برود الدنيا، ولأنه يحصل على عشرة فى المائة من قيمة الكشوف، فقد أجابنى بأنه يمكنهم الركوب من هنا، والتصرُّف فى المبلغ، عندما يصلون إلى قريتهم..

واشتعلت كل ذرة فى كيانى بنار عجيبة..

نار هى مزيج من الغضب والسخط، والإحساس بالذنب والعار..

كيف أفعل هذا ببشر؟!..

كيف أمتهن آدميتهم إلى هذا الحد؟!..

كيف؟!..

كيف؟!..

وفى تلك اللحظة، قررتُ أن أنهى هذه المأساة بأية وسيلة ممكنة..

وكان أن قرأت إعلاناً عن وظيفة ذات بريق خاص، فقررتُ التقدُّم لها فوراً، وذهبت إلى مدير الإدارة الطبية، وكانت تربطنى به صلة صداقة، وأخبرته بالأمر، وسألته بما ينبغى أن أفعله، فأجابنى ببساطة:

– سافر..

– والوحدة؟!

– ضع عليها قفلاً كبيراً..

– ثم ماذا؟!

– لا شئ.. سأرسل لك لجنة تفتيش، وتثبت فى أوراقها أنك غائب، وتقوم بعمل جرد، وهكذا تُصبح أوراقك كلها سليمة، ويمكنك إنهاء عملك وقتما تريد.

ولقد نفذت ما قاله بالضبط..

وسافرت إلى (القاهرة)..

وتقدّمت لتلك الوظيفة..

كل من عرفنى، فى أية مرحلة من حياتى، أصابته دهشة بالغة..

الكل رأى أن هذه الوظيفة بالذات لا تُناسب طبيعتى أبداً، لما فيها من قيود والتزامات..

ولكننى واصلت فى إصرار..

واجتزت كل الاختبارات المطلوبة بنجاح..

والتحقت بالوظيفة..

ولما كان الالتحاق بها يحتاج حتماً إلى مرحلة من التدريب، ولما كان من غير الممكن أن أعود إلى بلدتى، بسبب مشكلتى مع والدى، فلم يعد أمامى سوى حل واحد..

مرحلة الشقق المفروشة..

ولقد استمرت هذه المرحلة، من عام ١٩٨٣ إلى ١٩٩٢م..

وهذا يعنى أننى قد أنفقت على الشقق المفروشة ما يكفى لبناء عمارة كاملة..

ولكن هذه المرحلة غيّرت كل شئ فى حياتى..

فمعها لم أعد مضطراً للبحث عن علاقة جنسية، أو الدوران حولها..

الدنيا هى التى أصبحت تدور، وعلىَّ فقط أن أنتقى منها ما أريد..

وهكذا بدأت مرحلة جديدة..

وتجربة مختلفة..

وخطيرة..

جداً.

***

مع انتقالى إلى (القاهرة)، اختلف كل شئ فى حياتى على نحو عجيب، حتّى فيما يتعلّق بمهنتى، التى اتخذت مع الوظيفة الجديدة منحنى مختلفاً..

وحتّى أتسلّم وظيفتى الجديدة هذه، كان أمامى خمسة عشر أو عشرون يوماً، كفترة تحضيرية وتمهيدية، وتدريب على طبيعة العمل، وخلال هذه الفترة القصيرة، قرّرت نسف كل مدخراتى التى جمعتها فى فترة العمل فى الصعيد..

وليس لدى تفسير مُحدّد لهذا الأمر، ولكننى كنت أشعر أن تلك النقود أشبه بكتلة من اللهب فى أعماقى..

صحيح أننى جمعتها بعمل وكد وتعب وكفاح ما بعده كفاح، إلا أن معظمها أتى بأساليب فيها شئ من القسوة والاحتيال وعدم الرحمة، أو حتى استغلال الظروف..

وربّما لهذا كرهتها..

وربّما أنه يعنى أيضاً أن أعماقى ليست مظلمة تماماً، بل ما زالت تحمل فى جزء منها شعاع من ضوء، وهو ذلك الذى يجعلنى أُدرك، وأنا أرتكب كل خطأ، أنه خطأ..

ولكننى كنت أواصل المُضى فيه، على الرغم من هذا!..

قد يكون هذا نتاج ظروف نفسية، أو اجتماعية، أو بيئية، أو غيرها..

المهم أننى قد بدأت بالفعل عملية نسف مدخرات الصعيد، وأخذت أُقيم فى فنادق خمسة نجوم، وأتناول طعامى فيها، وأقضى السهرات، وأسكر، وأُقيم علاقات مع النزيلات والعاملات..

ولم أدر لحظتها كم فى الأمر من مفارقة؛ فأنا أهرب من خطأ بالانغماس فى أخطاء، على الرغم من أنه كان من أضعف الإيمان أن أنتهز الفرصة لأبدأ بداية جديدة نظيفة، ولكننى كنت مشدوداً دوماً لذلك النوع من الحياة العابثة المنفلتة، وأجد فيها راحتى وهدوئى واستقرارى، على الرغم من كل ما يسببه لى من

الانفلات

متاعب ومشكلات..

المهم أننى فى النهاية حصلت على الوظيفة، مما استلزم وحتّم البقاء والإقامة بصفة دائمة فى (القاهرة)..

حدث هذا، بعد أن استنفذت آخر قرش فى جيبى، وعدت مرة أخرى إلى الصفر، فى مدينة كبيرة مثل (القاهرة)، دون أن أملك سوى مرتبى، ودون أن يتيسّر لى الإقامة فى المستشفيات، كما كنت أفعل من قبل، لأن طبيعة العمل كانت تختلف كثيراً..

وهكذا اقتحمت عالماً جديداً تماماً..

عالم (البنسيونات)..

وهذه (البنسيونات) عبارة عن شقة كبيرة، فى وسط البلد فى المعتاد، مأخوذة بوضع اليد من أجانب، غادروا (مصر) مع الثورة، أو بعد التأميمات، وبها سبع حجرات، وحمام واحد، ويسكنها ما يقرب من خمسة عشر شخصاً، لكل منهم حياته، وظروفه، ومأساته أيضاً..

أيامها كان مجرّد النوم يساوى ثمانية جنيهات يومياً، ومتوسّط دخل معظمهم لا يزيد عن إثنى عشر جنيهاً، يدفع منها ثمانية جنيهات للنوم، ويحيا بالأربعة المتبقية طوال النهار، وهذا بالطبع أعلى كثيراً من الشقق المفروشة، ولكن تلك الأخيرة تحتاج إلى إيجار شهرى، يبلغ -أيامها- مائتين وخمسين أو ثلاثمائة جنيه، وتحتاج إلى تأمين ومقدّم، وخلافه، على عكس (البنسيونات) التى يمكنك أن تحيا فيها يوم بيوم، والكل هناك متحفّز لليوم الذى تعجز فيه عن دفع أجر الحجرة، ليتم طردك فوراً، وتأجير حجرتك إلى آخر، فى قائمة الانتظار..

وهى قائمة طويلة جداً..

وهناك، وعلى الرغم من أننى لم أتعامل مع المكان إلا كفراش للنوم فحسب، حيث كنت أعود إليه فى الواحدة والنصف أو الثانية صباحاً، وأغادره فى السابعة، إلا أننى كثيراً ما جالست بعض النزلاء، وسمعت حكاياتهم، أو بمعنى

أدق مآسيهم الرهيبة المفجعة..

وما زلت أذكر هنا حكاية تاجر قديم، أفلس تماماً، فتخلّى عنه أولاده، ودفنوا رءوسهم فى الرمال، فى حين استولت زوجته على ما تبقّى من تجارته، وقرّرت بيعها بالتقسيط، بنظام الدلاّلات القديم، وبدأت هى تعمل، وهو يجلس فى المنزل.. ومع الوقت أصبحت صاحبة رأس مال، وصاحبة التجارة، والكلمة أيضاً..

وتقبّل الزوج الأمر بخضوع واستسلام، جعلا زوجته تفقد إحساسها برجولته، مما جعلها تنتقل إلى مرحلة أكثر خطورة..

لقد بدأت فى إقامة علاقات جنسية مع آخرين..

فى البداية، حاول هو أن يشيح بوجهه، ويتظاهر بعدم المعرفة، إلا أن جبروتها جعلها تُخبره فى وضوح أنها تنام مع آخر، ثم طلبت منه أن يترك المنزل لها ولعشيقها، ونقلته بنفسها إلى (البنسيون)، ومنحته خمسة عشر جنيهاً يومياً، هى أقل من ربع ما تُنفقه على عشيقها..

ولم يكن أمام الرجل سوى مواصلة الرضوخ والاستسلام، فلم يكن باستطاعته تطليقها، لأنها أصبحت مصدر دخله الوحيد، بل لقد بلغ به الأمر أن أخذ يروى للكل قصته ليفضحها، وهو يدعو لها يومياً بالبقاء، لأنه يرتجف رعباً لما يمكن أن يُصيبه لو ماتت أو تخلّت عنه، بعد أن تحدته أن يُطلقها، وألقته هناك، وأخبرته أن المنزل لا يسعه مع عشيقها فى آن واحد.

وفى (البنسيون) نفسه، التقيت بامرأة عجيبة، وكانت لى معها قصة أعجب.. فذات يوم، فوجئت بامرأة شابة تدخل إلى (البنسيون)، حاملة حقيبة يد ضخمة، لا تتناسب مع رشاقتها وشكلها، وبعد أن حصلت على حجرة، جاءت لتجلس إلى جوارى فى الصالة، وفوجئت بها تتطلّع إلىّ بعض الوقت، ثم تميل نحوى، وتسألنى بجرأة عجيبة:

- انت ضارب إيه.

أدهشنى سؤالها، وأدهشتنى جرأتها، ولكننى أجبتها بالجرأة نفسها، أننى قد

أخذت نفس مخدرات فحسب، فسألتنى بلهفة: هل معى المزيد؟!.. وعندما أجبتها بالإيجاب، عرضت علىَّ أن نذهب للسهر عند بعض أصدقائها..

وفى المساء، أخذتنى إلى شقة، لم أر فى حياتى مكان يحوى كل موبقات الدنيا مثلها..

كانت تضمّ عشرات من البشر، فى مجموعات نوعية متماثلة، أى أن كل فئة تجتمع مع بعضها البعض.. مدخنو الحشيش، ومستخدمو الهيروين والكوكايين، وضحايا (الماكستون فورت)، وغيرهم، وكل مجموعة لا شأن لها بالأخريات..

وعلى الرغم من حياتى الحافلة، فقد شعرت بالصدمة والذهول، لوجود كل هذا الكم من الفساد والانحراف فى مكان واحد..

المهم أننا جلسنا مع مجموعة الخمور، وشربنا بعض الوقت، قبل أن تعرض هى علىَّ أن نقضى ليلتنا فى صالة الشقة، باعتبار أن هذا إجراء طبيعى فى هذا المكان، إلا أننى كنت قد نضجت بعض الشئ، وقرّرت ألا أُقيم علاقة إلا مع إنسانة أفهمها وأعرفها، وتربطنى بها ولو صداقة بسيطة، مما جعلنى أعرض عليها أن نخرج إلى مكان مفتوح، لنتناول كأسين، ونتحدّث عن بعضنا البعض..

وفى بار أحد الفنادق، راحت تروى لى قصتها العجيبة..

فقد كانت راقصة فى (لندن)، فى مكان أطلقوا عليه بفجور عجيب مستفز اسماً مقدساً؛ بسبب إقبال العرب هناك عليه، ولقد أمكنها أن تدخر هناك سبعة عشر مليون جنيه استرلينى، أى ما يقرب من مائة مليون جنيه مصرى..

ثم تعرّفت هناك على بلطجى من (الدرب الأحمر)، يُقيم فى (لندن) منذ سنوات، ويُتاجر فى البودرة المخدِّرة..

وعلى يديه، أدمنت ذلك المخدِّر المدمِّر..

ومع إدمانها، راحت تُنفق عليه بإسراف، حتى أنها أقامت له معملاً لتقطير بودرة الهيروين الخام، وتكثيفه حتى يُصبح سائلاً للحقن..

وفى خلال عامين فحسب، لم يتبق معها سوى مائة وخمسة وعشرين ألف

جنيه استرلينى فحسب، أنفقتها لعلاج إدمانها، فى مصحة فى (سويسرا)، ثم عادت إلى (مصر) بحقيبة ملابسها فحسب، وأصبحت تتناول كل أنواع الخمور والمخدرات، فيما عدا البودرة والحقن..

وفى ذلك المجلس، عرضت على أن نستأجر شقة مفروشة، ونقيم فيها معاً، على أن ترعانى، وتشاركنى حياتى، وتكون طوع يمينى..

وراقت لى الفكرة، واستهوتنى، فرحت أستدين من كل من أعرفه، حتى جمعت ما يكفى لاستئجار شقة مفروشة بمائتين وعشرين جنيهاً، فى مدينة (نصر)، وانتقلنا للعيش فيها معاً..

وكانت امرأة لا مثيل لها، حتى أننى كنت أنهى عملى فى سرعة، وأعود إليها بكل اللهفة، لأتناول طعامها الشهى، وجسدها الأكثر شهية، وأحيا لحظات من المتعة والسعادة و(المزاج)..

وعلى الرغم من هذا، فلم أحتملها لأكثر من عشرة أيام..

فمشكلة المشاكل بالنسبة لها، هو أنها لا تستيقظ أو تهدأ، إلا بعد أن تتناول زجاجتى خمر على الأقل، وطوال الوقت تتحول إلى آلة لالتهام الخمور والمخدرات، ولو منعتها من هذا، تتحول إلى امرأة عصبية ثائرة غاضبة، لا يمكنك احتمالها لساعة واحدة..

لذا، فقد واجهتها بأنه من المحتّم أن ننفصل..

وكانت صدمة بالنسبة لها، حتى أنها راحت تتوسل وتستعطف، ثم لم تلبث أن عرضت على المساهمة فى نفقات الإقامة، وخاصة بعد أن أخبرتها أن أسلوبها يستنفد كل نقودى، ويجعلنى أستدين من كل مخلوق، قبل مرور الأيام العشرة الأولى من الشهر..

ولكن الوسيلة التى عرضت المشاركة فى النفقات بها كانت رهيبة بحق..

لقد أخبرتنى أنها ستؤدى كل واجباتها، وترعى طعامى وشرابى وحياتى، ثم ستعطينى مائة جنيه يوميا، من عمل ستقوم به خارج المنزل وفى غيابى، ولن

أشعر به قط، على حد قولها..

وكانت الصدمة من نصيبى أنا هذه المرة..

إذن فهى تُطالبنى بالعمل كقوّاد، أو بإدارة شبكة دعارة خفية، بمجرد إشاحة وجهى عنها!!

يا للهول: على رأى الأستاذ (يوسف وهبى)..

أى منحدر هذا؟!..

ولست أدرى لماذا تذكّرت لحظتها ذلك التاجر المفلس فى (البنسيون)..

وأصابنى الذعر..

ورفضت عرضها تماماً، بمنتهى الصرامة والحدة، وأنا أحمد الله على ذلك البصيص من الضوء فى أعماقى، والذى حمانى من السقوط فى هاوية سحيقة كهذه، كان يمكن أن أتردّى فيها دون أن أدرى..

المهم أنها استسلمت لقرارى، وغادرت الشقة، وأكملت أنا الشهر بالكاد، وأنا أواصل الاستدانة من كل مخلوق، حتى انتهى الشهر، واستردّيت قيمة التأمين وسدّدت ديونى، وعدت أُقيم مرة أخرى فى (البنسيونات)..

وأسمع المآسى والفواجع..

ولكن عينى وقلبى كانا قد تعلّقا بالشقق المفروشة، لما فيها من راحة واستقلالية أكثر، لذا فقد سعيت لإقناع اثنين من الزملاء باستئجار شقة مشتركة..

وأخذنا بالفعل شقة فى (منشية البكرى)..

وزميلاى كانا من أصل طيب، ولكنهما ملهوفان على خوض الحياة التى أحياها، لذا فقد نتح أسلوبى على حياتيهما، وانزلقا معى فى عالمى..

كنت أيامها قد أرهقت كثيراً، ولم أعد أسعى خلف هذه الأمور، ولكن كل شئ راح يصل إلينا فى سهولة، والزميلان الطبيبان راحا يقطعان الطريق، الذى قطعته منذ حداثتى، وأنا أُدير المجالس فحسب..

وعلى الرغم من أن النساء، اللاتى كن يحضرن إلينا، كن يصعدن على أطراف أصابعهن، إلا أن الكل أدرك ما يحدث، وخصوصاً امرأة فى الطابق الذى نعلوه بطابقين، فقد كانت تتجسّس عليهن من العين السحرية بالباب، ثم تشكو لزوجها وتستفزه، فيهاجمنا بعنف، ويُسبّب لنا عشرات المشكلات..

الطريف أننى كنت يوماً فى سهرة مزاج، مع إحدى صديقاتى، وفوجئت بتلك المرأة تأتى مع صديقها وعشيقها، وتقضى السهرة معنا..

تظاهرت بأننى لا أعرفها، وتظاهرت هى أيضاً بأنها لا تعرفنى، وقضينا السهرة معاً، وهى تتعامل مع صديقها بانفتاح وابتذال، ثم عدت أنا إلى المنزل، وانتظرت عودتها بشغف وفضول، فلم تعد إلا فى الخامسة عصر اليوم التالى، وهى تحمل حقيبة كبيرة، وعلمت من البوّاب أنها قد أخبرت الكل بسفرها إلى (دمنهور)؛ لحضور حفل زفاف أخت صديقتها هناك!..

وياللعجب!..

أكثر البعيدات عن الشرف، هى أكبر المتحمسات للدفاع عنه!!..

والأكثر عجبا أنها قد واصلت حربها باستماتة، واثقة من أن أحدا لن يصدق قصتى، لو حاولت فضحها، على الرغم من أن هذا لم يكن فى نيتى قط، وظلت تستنفر الكل لمحاربتنا، حتى اضطررنا فى النهاية لترك الشقة..

أحد الزميلين، وكان من (الإسكندرية)، ذهب للإقامة عند حماته، فقد كان على وشك الزواج، أما الثانى، وهو من (المنصورة)، فقد ابتاع عيادة صغيرة، وراح يقيم بها.. وبالنسبة لى، كان دخلى قد ارتفع بعض الشئ، فاستأجرت شقة أخرى صغيرة لأقيم فيها وحدى، وأفعل فيها كل ما يحلو لى..

ولأن الطيور على أشكالها تقع، فقد وجدت فى طريقى ممرضة جميلة، ارتبطت معى بعلاقة قوية، ثم لم تلبث أن عرضت الإقامة الكاملة معى، بعد أن أوهمت أهلها أنها تعمل فى مستشفى استثمارى، يتطلب الإقامة الكاملة فيه..

وفى ذلك الحين كانت طبيعتى قد تطورت، بحيث صرت أعيد تشكيل المرأة

التى أرتبط بها، لأصل إلى مرحلة إشباع أعلى، فأغوص فى أعماقها، وأفهمها الجنس من زاويتى ومنظورى، فتصبح لنا معا رؤية واحدة تساعد على استمتاع أكثر، ودرجة اندماج أعلى..

وكانت تلك الممرضة هى التلميذة الأولى فى مدرستى..

واللذيذ أنها قد تركت لى نفسها تماما، ورحت أستمتع بها وتستمتع بى إلى أقصى حد ممكن..

ولكن حتى هذا لم يمنع الملل من التسلل إلى حياتى، وخاصة بعد أن شعرت أنها حمل ثقيل على نفسى، ربما لتدخلها فى أمورى، أو لأنها بلغت سقفا لم تستطع التطور بعده، ولكن من المؤكد أن أحد الأسباب الرئيسية، كان إصرارها على لعب دور الزوجة وليس العشيقة..

المهم أننى أخرجتها من حياتى..

وأصابها هذا بالجنون، وراحت تصنع لى عشرات المشكلات، وتقاوم انفصالنا فى استماتة، ثم لم يلبث كل هذا أن تحول إلى هجوم عنيف وحشى..

كانت تمتلك مفتاحا للشقة، فصارت تدخل وتخرج، وتفاجأنى فى العيادة، وتشكو للكل، وتفعل كل ما يمكنك أو لا يمكنك تصوره..

ثم باغتتنى فجأة بالهجوم الأعظم..

بأنها حامل منى!..

كانت صدمة عنيفة بالنسبة لى، ولكننى واجهت الأمر بتماسك ظاهرى، وقلت لها إن هذا لن يجبرنى على الارتباط بها، بل ولن يجعلنى حتى أناقش أية أمور معها، وأنها لو أرادت أن تناقش الأمر، فلتأتنى فارغة كما كانت، حتى لا أشعر أنها تحاول لوى ذراعى، والضغط على بأمر الحمل هذا..

والمدهش أنها قد صدقت..

وأفرغت حملها..

وعندما فعلت، واجهتها بأننى لن أتزوجها أبدا، ووعدتها بعمل عملية ترقيع

غشاء البكارة لها، بحيث تتزوج وتتركنى..

وتزوجت بالفعل..

ثم عادت إلى بعد ثلاثة أيام فحسب، فور سفر زوجها إلى عمله، وأخبرتنى أنا ما زالت تحبنى وتريدنى، مما جعلنى أطردها فى عنف، وبفضيحة سخيفة، اضطررت بعدها لترك الشقة، والانتقال إلى شقة أخرى فى الحى العاشر بمدينة (نصر)، فى مكان تجهله هى تماما..

ولقد تعلمت درسا قاسيا فى هذا الأمر..

فعندما تريدك المرأة، لا يمكنك أن توقفها قط، فرغبتها فيك ستجعلها أشبه بوحش مفترس، ورغبتها فى الانتقام منك والكيد لك، إذا ما رفضتها، ستجعل حياتك كالجحيم..

فالمرأة بطبعها مكبوتة مقهورة، مما يولد داخلها مشاعر مزدوجة عجيبة تجاه الرجل، تجمع ما بين الحب واللهفة، والحذر والبغض فى آن واحد، وخصوصا فى الجنس..

ولست أدرى فى الواقع لماذا لا يناقش أى زوجين أمور الجنس، كما يناقشون أية أمور حياتية أخرى؟!..

إنها فى الواقع نواة حوار وتفاهم، فالبدء بالصعب يجعل كل ما يليه سهلا ميسورا، ولو أقيم حوار محترم بين زوجين، حول الجانب المجهول للجنس، بالنسبة لكل منهما، ستصبح حياتهما أفضل بكثير..

هذا سيساعدهما على تحقيق أكبر قدر ممكن من المتعة، التى سيستفيد منها الرجل أيضا، وربما بأكثر مما ستتمتع بها المرأة..

وأنا أؤمن تماما بمثل هذه الحوارات، وفى كل علاقة أقيمها، كنت أحرص جدا على إقامة حوار مع الطرف الآخر، حتى نعدل سلوكنا الجنسى معا، ولكن المشكلة كانت تكمن دائما فى الطرف الآخر، مثل تلك الممرضة، التى أصرت على تجاهل صوت العقل، وأصرت على أن تحيا فى دور الزوجة، فى علاقة غير

شرعية، ثم رفضت تماما أن تلعب الدور نفسه فـي علاقـة شرعيـة قانونيـة، وفضلت عليه دور عشيقة فى الظل..

أى تناقض هذا؟!!..

المهم أننى قد أنهيت علاقتى بها، وانتقلت للعيش فى شقـة مدينـة (نصـر) تلك..

ولكننى كنت قد اعتدت على أن توجد من تشاركنى حياتى، لـذا فقـد رحت أسعى للبحث عن امرأة تقبل العيش معى..

وبدون زواج طبعا..

والمدهش أننى قد عثرت على امرأة بالفعل، ومن الطراز الذى يمكن أن نطلق عليه اسم (Super Sexy)..

امرأة بيضاء، حلوة اللسان، جميلة الملامح، شهية الجسد، شقراء الشعر..

وبسرعة، جاءت للعيش فى منزلى، لأكشف حقيقـة مدهشـة مـن حقـائق الحياة..

ليس كل ما يبرق ذهبا..

لقد كانت، على الرغم من شكلها المبهر، مجرد لوح من الثلج، مغلق العقـل والوجدان، وليست لديها أية نية للتغيير أو التطوير..

لم تكن تفهم أو تستوعب، أو حتى تحاول.. تماما كما لو أننى أتحدث معـها بالهيروغليفية..

وهذا أعطانى درسا جديدا..

لا تغرق نفسك كثيرا فى المظهر، وابحث بكل مشاعرك عن الجوهر..

والعجيب أن المئات لا يعيرون هذه الحكمة أى اعتبار، فما أن يلمح الواحـد منهم فتاة جميلة، حتى يلقى نفسه تحت قدميها، ويسعى للزواج منها باسـتماتة، وما إن يجمعهما بيت واحد، حتى يكشف أنها فارغة تماما من الداخل، وأنه قـد تورط منذ البداية فى لعبة خاسرة..

الأصح هو أن تتزوج امرأة ترتاح لأعماقها، وليس لشكلها، فلو أخذت امرأة مقبولة، حلوة المعشر، ستصبح مع الوقت أكثر حلاوة من الجميلة التى لا تحسن معاشرتك..

خذها منى نصيحة..

وبالنسبة لى، فقد تعلمت هذا الدرس تماما، وقررت إلغاء عمليـة التعـايش هذه، واستبدالها بعلاقات عابرة مؤقتة..

وهذا عالم جديد أيضا..

عالم التقيت فيه بعشرات المتزوجات، من طبقات عليا، ولديهن دخول ماديـة مرتفعة، ولكنهن جميعهن على أتم استعداد لخيانة أزواجهن، بألف حجة وحجة، دون أدنى شعور بالذنب..

فالزوج فى رأيهن نكدى، ثقيل الظل، فظ الحديث، خشن وغـير نظيـف فـى علاقاته الجنسية، أو أنانى تماما، مما يجعلها تشعر معه بـالقرف والاشمـئزاز والنفور، وعدم الارتياح مما ينعكس عليها، وعلى كل الأجيال التالية..

وهناك صور مختلفة تماما، فأنا أعرف مثلا أسرة، اعتادت تدخين الحشيـش معا.. الأب، والأم، والابن، والابنة، وزوجة الابن، وزوج الابنة..

ترى أى انهيار اجتماعى هذا فى الحالتين؟..

فى الحياة فى الظل.. والانفتاح أكثر مما ينبغى..

صور قد تُدهشك وتفزعك، ولكننى رأيتها بنفسى..

المهم أننى قد بدأت فى إقامة علاقات مؤقتة..

ولأن تعاملاتى أصبحت بالقطعة، ومن كل بستان زهرة، كان من الضرورة أن أتلمّس طريقى، وأبحث عن الدلالات، التى تُرشدنى إلى كل امرأة، مستعدة لإقامة علاقة مع رجل..

والقاعدة الأولى التى أدركتها، فى هذا المضمار، هو أن كل علاقة جنسية تبدأ من الأذن..

المرأة التى تمنحك أذنها، وتستمع إلـــى مشكلاتــك ومتــاعبك الشخصيـــة، وتتعاطف معها، ستمنحك حتماً جسدها، لو أنك سعيت إليه، بوسيلة أو بأخرى..

وهذه نصيحة لكل امرأة، ترغب فى أن تكون محترمة..

لا تمنحى أذنك لرجل قط، لو بدأ يتحدَث عن أمور شخصية، ولا تحاولى إقناع نفسك بأن هذه مجرَد صداقة، أو تعاطف إنسانى، أو أية صورة أخرى..

ولا تصدقيه، حتى لو أكَد هذا..

ففى كل تجاربى – تقريباً – كنت أبدأ بالحديث، ثم ألتقط مــــن تســـمعنى، أو تتعاطف معى، ولو على سبيل المجاملة..

وبالذات تلك التى تأخذ صدى الحديث، وتُبدى ردود أفعال..

ولم تفشل هذه القاعدة أبداً..

ومن حُسن حظى، أننى لم أتورًط قط فى أمـــور مدمـــرة، مثـــل المخــدرات البودرة، فقد شاهدت العشرات تنخرب بيوتهم، وتنتهى حياتـــهم، بســـبب هـــذه السموم.. ومنهم أحد أصدق أصدقائى، الذى خسر بسبب السموم البيضاء خمسة وخمسين فداناً من الحدائق المنزرعة بالعنب، ثم لقى حتفه فى النهاية..

ولهذا حاولت أن أكون متوازناً، حتى فى الفساد، فكل ما كنت أفعله هو تدخين القليل من المخدرات البسيطة، وأتناول زجاجتين من البيرة أسبوعياً فحسب..

ولكن يبدو أن ذلك الجزء المُضئ فى أعماقى قد تألَق أكثر وأكثر..

أو أننى قد سئمت الانتقال من محطة إلى محطة..

أو اشتقت أكثر وأكثر إلى وجود امرأة مستقرة فى حياتى..

هذا لأننى بدأت أُفكر فى آخر ما يمكن أن يخطر على بالك، بعد كل ما قرأته..

فى الزواج!

* * *

قبل أن أروى قصة زواجى، لدى قصة، رأيت أن أفرد لها فصلاً خاصاً فى اعترافاتى هذه..

قصة لا يمكن أن أتحدث عن الزواج، دون أن أذكرها أو تمرّ بخاطرى..

ففى إحدى مراحلى الوظيفية كان لى صديق، يُشاركنى سهراتى ونزواتى ومغامراتى..

وذات ليلة، أخبرنى صديقى هذا أنه يشعر بالارتياح معى، ويرانى شهماً وكريماً، وأنه لن يجد لشقيقته زوجاً أفضل منى..

ولقد أدهشنى قوله، وأثار تقديرى واحترامى فى الوقت ذاته، خاصة وأن هذا أمر غير شائع، فى مجتمعاتنا الشرقية، ولكنه كان يتحدّث بجدية شديدة، وأخبرنى أن شقيقته حاصلة على شهادة متميّزة، وتحتل منصباً رفيعاً جداً، فى مجال التكنولوجيا، فى أحسن شركة فى (مصر)، وأن الوسيلة الوحيدة للفوز بها، هى أن أربح عقلها لا قلبها..

ثم دعانى إلى منزله، فى حضور والده ووالدته وشقيقته، ورحت أقضى معهم سهراتهم العائلية، التى كانت تحضرها زوجته أحياناً، حيث نُشاهد فيلماً، نتبادل من خلاله الحوار، مع بعض الأحاديث العقلانية، فقد كان عقلها يحكمها بالفعل، ثم أنها شقيقة صديقى، وهناك أمور عديدة ينبغى مراعاتها..

وعندما شعرت الأسرة بميل البنت، أبلغنى هو، فتقدّمت لخطبتها رسمياً، ووجدت لدى والدها فكرة جيّدة عنى، وجاء مع أشقائها لزيارة أسرتى فى بلدتنا، بعد أن انتهت مرحلة النفى وخلافاتى مع والدى، وبدأ كل شئ يسير وفقاً للتقاليد والرسميات..

وفى الوقت ذاته، كانت حياتى تسير على ما هى عليه، من شرب وسهر، وشقيقها، الذى هو صديقى القديم، يُشاركنى الحياة نفسها كالمعتاد..

ثم فجأة، وجدته يُطالبنى بلم نفسى، وبتغيير حياتى، باعتبارى على شفا

خطبة، وهذه الحياة لا تُناسب مستقبلى..

ولقد فاجأنى قوله هذا وأدهشنى، خاصة وأنه متزوّج، وما زال يحيا الحياة نفسها، ثم أن أهله يعلمون بسلوكياته، كما أنهم قد خرجوا معى عدة مرات للسهر فى أحد الفنادق الكبرى، وكنت أشرب البيرة أمامهم، وهى تعرف، وكان هو معنا مع زوجته..

وذات مرة، أتى هو لزيارته، ووجد عندى امرأة كنت على علاقة قديمه بها، يعرفها هو جيّداً، وعندما رآته، قالت ساخرة:

– باركلى.. أنا حامل من صاحبك.

كانت حبلى منى بالفعل، ولقد اتفقنا على أن تجرى عملية إجهاض فى اليوم التالى، وهو يعرف كل هذا، إلا أنه ذهب إلى والده، وأخبره أنه جاء لزيارتى، فوجد عندى امرأة تحمل طفلى، وأننى طالبته بمساعدتى فى إجهاضها..

ومن الطبيعى، مع أسلوبه هذا، أن تغضب أسرته بشدة، حتى أن والده اتصل بوالدى، وقال فى صرامة:

– ابنك ارتكب فعلة شنعاء، وحتى لو سامحناه نحن عليها، فالله سبحانه وتعالى لن يُسامحه قط.

وجن جنون والدى لمعنى العبارة..

وجن جنونى أيضاً، وذهبت إلى صديقى أسأله: لماذا فعل هذا؟!.. وأخبرته أننى أعتبر أن ما بينى وبين شقيقته قد انتهى تماماً، ولكننى أُريد منه، من باب الشجاعة الأدبية أن يُخبرنى، لماذا فعل ما فعل، وأنا مستعد بعدها للذهاب إلى والده، وإخباره أننى مُنسحب تماماً من الأمر كله، وأننى رجل نذل..

وصمت صديقى طويلاً، ثم قال فى اقتضاب عصبى:

– إننى أنقذ منزلى.

سألته فى دهشة:

- وما دخل منزلك بالأمر؟!

ولم أحصل منه على جواب..

واعتبرت أن أمر خطبتى لشقيقته قد انتهى تماماً، وأُسدل عليه الستار، وكل ما علىّ أن أضعه فى طى النسيان، وأكفى عليه ماجوراً، كما يقولون فى الأرياف..

ولكن كانت فى انتظارى مفاجأة..

لقد اتصلت بى شقيقته، وسألتنى فى صراحة:

- أصحيح أنك تعرف فلانة؟!

• صحيح.

- وهى حامل منك؟!

• نعم.

- وهل طلبت من شقيقى معاونتك على إجهاضها؟!

• لا.. لم يحدث.

- وماذا حدث إذن؟!

• لقد أنزلت الجنين وانتهى الأمر.

صمتت بعض الوقت، ثم قالت فى حسم:

- أريد أن أقابلك.

كانت صداقتى لشقيقها قد انتهت بالفعل، وبيننا علامة استفهام كبيرة، حول سبب ما فعله، وشقيقته تناشدنى أن ألتقى بها سرا، ولدى رغبة شديدة فى أن أفعل هذا، ليس خيانة لصديقى، ولكن كرغبة عارمة منى فى حل علامة الاستفهام عن طريقها..

المهم أننا قد التقينا..

وتحدثنا كثيراً..

ومنها عرفت أن زوجة شقيقها الأكبر وراء هذا، فقد اتهمت زوجة صديقى بأنها تحبنى، وأنها وراء محاولة خطبتى لشقيقته، حتى تُسهل لقاءاتى بها..

كلام لا أساس له من الصحة، ولكن زوجة شقيقها الأكبر افتعلته، لأننى لم أرق لها منذ البداية..

ولقد أيّد قولها هذا عبارة شقيقها، بأنه يُحاول إنقاذ منزله والحفاظ عليه..

ولقد غضبت فتاتى من هذا الأمر، وتعاملت معه بعناد، رافضة أن يتدخل الآخرون فى حياتها على هذا النحو، مما جعلها تُصرّ على استمرار العلاقة بيننا على نحو ما..

ولكننى لم أشعر بالارتياح للأمر أبداً..

مقابلاتنا لن تأتى بجديد، ولم يعد هناك أمل فى أن نتزوّج، بعدما فعله صديقى السابق، وما أخبر به أسرته كلها..

ثم إن الأمر قد بدأ سليماً، ومن غير المريح أن ينتهى بخطأ..

وصارحتها بكل ما بداخلى، وطلبت منها أن ننهى علاقتنا بهدوء..

ولكنها رفضت..

عنادها جعلها تتمسك بى بشدة..

وتمسكُها جعلها تقع فى حبى..

ورفضت أنا من جانبى، وعدت إلى حياتى السابقة، وقطعت علاقتى بها وبشقيقها تماماً، وانقطعت كل أخبارها عنى، طوال سبع سنوات كاملة..

وعلى الرغم من هذا، بدأت أنا مشروع الزواج، الذى سيأتى فيما بعد..

وبعد عقد القران مباشرة، فوجئت بشقيقها يزورنى فى المستشفى، ويُطالبنى بنسيان ما حدث فى السابق، ثم يُخبرنى أن شقيقته ما زالت متمسكة بى، ويمكننا أن نُعيد الأمور كما كانت عليه، ولكننى أخبرته أن هذا جاء متأخراً، وأن الأمر لا

يمكن إعادته إلى ما كان عليه، بعد أن وضعت قدمى على بداية حياة جديدة..

ولكن المشاكل بدأت بينى وبين زوجتى، وأصبحت تُسافر كثيراً إلى بلدتها، خلال فترة حملها، ووسط كل هذا، فوجئت بفتاتى تظهر فى حياتى مرة أخرى..

ذات يوم، فوجئت بها تتصل بى فى بلدتى، التى اعتدت زيارتها كل خميس وجمعة، بعد أن أنهيت خلافاتى مع أبى، وأبدت رغبتها فى أن ترانى، وأن نلتقى من جديد، وأخبرتنى أنها تعلم بأمر زواجى، وأن هذا لن يُغير ما بيننا أبداً..

والواقع أنها كانت قد أوحشتنى جداً، مما جعلنى أوافقها، وأذهب للقائها بكل اللهفة والرغبة..

وعرفت منها الكثير عن الفترة السابقة..

لقد سافر معظم أشقائها للعمل فى الخارج، وتوفى والدها ووالدتها، وجرت محاولة لتزويجها، ولكنها أفسدت الأمر قبل عقد القران بساعات، وأصبحت تحيا الآن وحدها فى شقة الأسرة، وأصبحت تحتلّ منصباً أكثر هيبة، وتستقل بنفسها تماماً..

وكان لقاؤنا حاراً للغاية، وإن لم يتطرّق قط للزواج سوى بضع دقائق، أقنعتها خلالها أن الزواج صار مستحيلاً بعدما حدث، ثم إن طبيعتى سترفض تماماً الإقامة فى شقة تملكها هى، كما أننى قد عقدت قرانى بالفعل..

وعادت علاقتنا تتوطّد أكثر وأكثر، ورحنا نتردّد معاً على بعض المطاعم والبارات.. كنت أنا أشرب، وهى تكتفى بمجالستى، ثم لم تلبث أن اعتادت أن تشرب أيضاً..

ودون أن نرتب لهذا، صرنا متقاربين جداً لفترة من الوقت!!

ثم دعتنى لزيارتها فى منزلها، الذى تُقيم فيه وحدها..

ولقد فعلت..

كانت عذراء، ممتلئة باللهفة والدفء، ومستعدة لاستيعاب كل ما ألقنها إياه،

وتحيا معى من منظورى، وكل ما يمتعنا واحد، حتى أننا نبلغ معاً الذروة دائماً، بتطابق مدهش، لم أشعر به مع سواها قط..

كانت هى جائزتى، بعد يوم عمل شاق، استمر لسبع عشرة، أو ثمان عشرة ساعة متصلة..

وكانت تختلف عن زوجتى فى كل شئ..

فالمفترض أنك، عندما تضع المفتاح فى باب منزلك، تنسى كل همومك ومشاكلك، وتستعد للاسترخاء والسكينة فى منزلك، ولكنك تجد نفسك أمام زوجة عابسة غاضبة، تلهب مسامعك وأعصابك بمشكلات الأولاد والمطبخ والسوق..

صحيح أن هذه مشكلات تُعانى هى منها طوال اليوم، ولكن أنا أيضاً لى مشكلاتى، التى لا ينبغى أن تصحبنى فى فراشى..

أما هى، فتاتى، فقد كانت الحياة معها أمراً يختلف كثيراً..

كنت أدخل إل بيتها، فألقى همومى مع ثيابى جانباً، وأغرق معها فى بحر الهدوء والاسترخاء، والسعادة والمتعة..

وكنت أُعيد تشكيلها، لتناسب طبيعتى تماماً، دون أدنى مقاومة منها، لأنها مقتنعة تماماً بى، وتحرص كل الحرص على أن يلقى كل منها همومه خارج الفراش، ونحيا لحظاتنا فحسب..

ومن المؤكّد أنها كانت تحرص كل الحرص، على أن تكون الساعات القليلة، التى أقضيها معها، صافية لنا تماماً، بتناسق مدهش، وتوافق بلا حدود، حتى أننى كنت أنام ساعة واحدة عندها، فى عمق شديد، وأنهض بمنتهى الحيوية، وكأننى قد نمت لعشر ساعات كاملة، وأعود إلى عملى منتعشاً نشيطاً..

ربما تتصوّر أنت أن زوجتى مظلومة، لأن فتاتى حرة، ليست لديها مسئوليات منزل وتربية أطفال، مما يجعلها مستعدة لى دائماً، ولكن لى أنا رأى آخر..

فالمفترض أن تعمل المرأة طوال الوقت على حسم كل المشكلات الإدارية فى

المنزل، بحيث لا يأتى موعد عودة زوجها، إلا وكل شئ سليم مُرتب هادئ..

وهذا ما كانت تفعله أمهاتنا طوال العمر، لو أن أحداً اعترض بأنه مستحيل!..

أما فى عصرنا هذا، فقد أسفرت الأوضاع المقلوبة عن وجود نوعين من الرجال..

نوع يدور فى الساقية، ولا يُدرك ما يحدث، حتى يستيقظ على الحقيقة فجأة، فى منتصف الأربعينات، عندما يدق ناقوس الكهولة، فيشعر بالندم على ما فاته، وينطلق فى الحياة باندفاع وعشوائية، وكأنما يُحاول تعويض كل ما فاته..

وهذا ما يُطلقون عليه اسم (المراهقة المتأخرة)..

أو (أزمة منتصف العمر)..

أما النوع الثانى، فهو يتمرَّد منذ البداية، ولا ينتظر الأربعينات، ويعيش كما يحلو له، ضارباً عرض الحائط بكل الأمور الأخرى..

ولقد شعرت مع فتاتى بالهدوء والراحة والسعادة، حتى أننى تصورت أننى لو مت فى أية لحظة، فلن أكون قد افتقدت شيئاً (!!)..

ويا ليت كل امرأة تمنح زوجها ما منحتنى إياه فتاتى دون زواج!..

أن تجعله يُطلق كل الجانب المتمرِّد منه فى البيت، حتى يتحولّ إلى ملعبه ومتعته، وكل ما يحبه فى الدنيا..

ولقد احتاجت تجربتى مع فتاتى إلى أربع سنوات، حتى نبلغ التوافق الكامل، وعلاقتنا ما زالت مستمرة، حتى لحظة كتابة هذه السطور، وربَّما كانت هى الساعات الوحيدة، التى أشعر فيها بالراحة، فى حياتى كلها.. والساعات الوحيدة التى أطلق فيها ذلك الجانب المتمرِّد من شخصيتى..

وكل منا لديه ذلك الجانب المتمرِّد..

ربَّما يكون ضامراً عند شخص ما، وعادياً عند آخر، وزائداً عند الثالث..

الضامر مظلوم، والعادى يرضى بحياته، أما الزائد فهو منحرف فاسق..

وهذه تجربتى..

تجربة جعلتنى أُدرك أن دس الأنوف فى شئون الآخرين قد يُفسد حياتهم ويُدمرها..

بل وقد يُفسد المجتمع كله..

فتدخُّل زوجة أخيها فى أمر ليس من شأنها، أفرز نتائجاً ربَّما لم تخطر ببالها هى نفسها، عندما فعلت ما فعلت..

فأنا أصبحت متعلقاً بحياة ثانوية، أعتبرها فى أعماقى حياتى الأساسية، التى أشعر فيها براحتى وكيانى وذاتى وسكينى، بعد أن خاضت معى شريكة العلاقة الثانوية تجربتى، ودفعت كيانها وذاتها للتوافق مع تركيبتى النفسية، مما صنع ذلك التجاوب والتناغم، الذى أصبح واحتى، وراحتى، ومبعث هدوئى واطمئنانى، والدافع إلى زوال الملل وذهاب الكلل، مع ما أنجبه هذا من تفتُّح أبواب جديدة لغد مشرق، أستطيع أن أمضى فيه إلى مالا نهاية..

وفى الوقت ذاته، أصبحت أسرتى بالنسبة لى هى العبء والضغط والإرهاق والعذاب، لمجرَّد أن زوجتى، التى فتحت أمامها قلبى؛ لترى وتقرأ ما داخله، وحاولت أن أُزيل أمامها كل ما يمكننى من الحواجز، حتى تعيد صياغة كل هذا بأسلوب يلائمها، قد عجزت تماماً عن قراءتى، وحولت منزلى وحياتى إلى قطعة من العذاب، كما سيأتى لاحقاً..

إنها تجربة خاصة، أرد أن أرويها، قبل أن أنتقل إلى الحديث عن محاولتى الصادقة للاستقرار والسكينة، و...

والزواج.

* * *

عرفت عشرات النساء فى حياتى، وذقت معهن وبهن متع لا حصر لها..

وعلى الرغم من هذا لم أشعر بالسكينة فى أعماقى أبداً..

شئ ما فى داخلى كان يشعر بملل شديد، وضغط فسيولوجى بلا حدود، وإحساس بالملل وعدم الراحة، على الرغم من تعدُّد العلاقات، وبدأ مبدأ محدود يسرى فى عروقى، بأن النساء، كل النساء، تتشابهن فى الظلام..

فلماذا التعب، والصراع، والتخفى، والتحايل؟!..

لماذا لا يسعى المرء للاستقرار مع امرأة واحدة، تكون له كل نساء الأرض، ويجد معها الراحة والمتعة؟!

ما الذى يطلبه الواحد منا، سوى هذا؟!..

ومن هنا، رحت أبحث عن الاستقرار الحقيقى..

عن الزواج..

وبدأت رغبتى هذه تظهر للآخرين فى وضوح، وبخاصة لمديرى فى العمل، الذى كان يعلم كل شئ عنى، ولكنه يؤمن، على الرغم من كل هذا، بأننى شخص جيِّد وابن ناس، وكان يتصوَّر أن ما أنا فيه بداية فساد، لابد وأن يُصلحه الزواج، دون أن يخطر بباله أن السعى وراء الزواج كان نهاية وليس بداية..

ومن ناحيتى، لم أُصارحه بكل شئ، كما حدث فى تجربتى السابقة..

لقد كانت لدى قناعة بضرورة أن أخوض هذه التجربة، موظفاً كل خبراتى السابقة لإنجاحها بأى ثمن..

ورشَّح لى المدير أسرة طيبة بحق، فتقدَّمت لطلب يد ابنتهم، بوصفى الاجتماعى الجديد، الذى ساعدنى كثيراً أيامها، على الرغم من أننى قد أقدمت على تلك التجربة وأنا صفر اليدين، وغير متمتِّع بمساندة اجتماعية أسرية على الإطلاق، ولكننى كنت مُصراً على الانسلاخ مما أنا فيه بأية وسيلة..

ولو حسبت الزواج، أى زواج، بالورقة والقلم، فلن تقدم عليه أبداً، ولكن العجيب أنك تبذل جهدك، وتفعل أقصى ما يمكنك، برغبة حقيقية صادقة، فتجد أن

الاستقرار

المركبة تسير، والأمور تحل، والرزق يزيد، حتى يتمَّ الزواج من حيث لا تحتسب..

ولقد كافحت كثيراً من أجل هذا الزواج..

عملت فى التأمين الصحى، وأدرت عملاً خاصاً فى بلدة زوجتى، مع عمل إضافى فى (القاهرة)، فدارت العجلة، وانفرجت الأزمة، ورحت أمضى فى الزواج أسرع مما كنت أتوقَّع أو أنتظر..

واستكمالاً للمصداقية، رحت أُصارح خطيبتى بتجاربى السابقة وبطقوسى الحالية، التى تُساعدنى على حُسن استقبال الأحداث مؤكِّداً لها أننى أستطيع التحكُّم فيها منذ زمن طويل، بحيث لا تؤثِّر فى حياتنا اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو معنوياً..

والمؤسف أنها قد تظاهرت بالاقتناع فحسب، وتركتنى أُزيل كل حواجزى، وأتعامل معها بكل الصدق والصراحة، فى حين أوهمتنى هى فحسب بأنها قد أزالت حواجزها، وأخفت عدم اقتناعها فى أعماقها..

وبكل الصراحة، أخبرتها أننى لن أتغير، وأن ما أنا فيه نهاية وليس بداية، وأن كل ما يهمنى هو أن أعود إلى منزلى، وأشعر فيه بالراحة والاستقرار..

ولكننى علمت فيما بعد أن أهلها قد أقنعوها بأننى سأتغير حتماً بعد الزواج والإنجاب، و...، ...

باختصار، اقتنعت بأننى سأتحوّل مع الوقت إلى زوج تقليدى..

ولكن هذا لم يحدث..

ولن يحدث..

لقد كانت لدى رغبة حقيقية فى الاستقرار، ولقد حاولت بكل طاقتى بعد الزواج، فعلى الرغم من تحسن مستوى الاقتصادى كثيراً، عملت بشدة على الإقلال من الانفلات، وضغطت على نفسى كثيراً، من وجهة نظرى، وقررت أن أمنحها الوقت الكافى لتتفهَّم طبيعتى، وتُساعدنى على الاستقرار فى البيت..

ومن أجل هذا، اتفقت معها على أن نؤجل الإنجاب لبعض الوقت، حتى يفهم كل منا الآخر، ويستوعبه..

وقضينا معاً ستة أشهر على خير ما يُرام، وكنا نخرج للسهر معاً، ونقضى ليالينا فى المنزل، وعلى الرغم من أنها لم تكن تشرب الخمور أو تتناول المخدرات، فقد تركتنى أفعل ما يحلو لى، حتى التصقت بالمنزل، وأصبحت أجد فيه راحتى وحريتى واستقرارى..

ولكن دوام الحال من المحال..

ففجأة، باغتتنى زوجتى بأنها حامل..

أخذتنى المفاجأة فى البداية وأربكتنى، وسألتها: لماذا أخفت هذا الأمر عنى، ما دمنا قد اتفقنا على العكس..

ولم تجب..

ورفضت بشدة فكرة الإجهاض، وأصرت على استمرار الحمل وتمسكها به بشدة..

ولم أقاوم إصرارها..

ووافقتها على استمرار الحمل..

ولكن زوجتى المصون لم تكتف بهذا..

لقد اتخذت قرارا، ككل الزوجات المصريات، منذ أشهر الحمل الأولى، بأن دور الزوجة قد انتهى، مع بداية دور الأم..

وبلا مقدمات، فوجئت بأم المستقبل ترفع راية الدين، وتؤكد فى كل مناسبة، وبدون مناسبة، أن هناك طفل قادم فى الطريق، ولابد من إحاطته بالبركة، والتوقف عن كل ما يغضب الله منا..

ولا أحد يمكنه أن يرفض قولها هذا، ولكن الأمر لم يكن أبدا مفاجئا لها..

إنها تعلم كل هذا منذ البداية..

ومارسته معى لستة أشهر كاملة..

إذن فهى لم تقتنع أبداً، أو تُحاول حتى فهم طبيعتى وشخصيتى، ولكن أخذتنى على مقدار عقلى كما يقولون، باعتبار أن حملها سيؤدى إلى تغير شخصيتى حتماً، دون أن يخطر ببالها أن ما تراه منى هو تغير بالفعل، وأننى لم أعد أبداً كما كنت..

ولكنها أبت أن تستمع..

أو تتفهَّم..

أو تستوعب..

لقد أصرَّت على تغييرى، وبذلت كل جهدها لكسر طباعى وأساليبى، متصوِّرة أنها تُحارب من أجل قضية عادلة، تستحق كل التضحيات..

وأخذت أنا أُقاوم.. وأُقاوم.. وأُقاوم..

كنت أُقاوم ذلك الطريق الفرعى باستماتة، حتى بدأ ينتابنى شعور بالاكتئاب، وبأن الدنيا قد هزمتنى ودحرتنى، وانتصرت علىَّ بالضربة القاضية، وهى ترفض تخفيف ضرباتها، أو مساعدتى على اجتياز المحنة بأية وسيلة..

وهكذا لم يعد أمامى سوى سبيل واحد..

أن أجد مكاناً آخر لممارسة ما أُريد دون منغصات، وللحصول على معدلاتى المنتظمة من وسائل المتعة..

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياتى..

مرحلة التحايل واللف والدوران، والكذب، و...

والخيانة..

بدأت مرحلة الخروج من البيت إلى مجتمعى الخاص، الذى أحصل فيه على حريتى الكاملة، من شرب وسهر، وعلاقات خارجية، وتجارب أستعيدها، بعد مقاومة طويلة، حاولت بها أن أحظى بالاستقرار والسكينة الأسرية، ولكن أسلوب زوجتى أضعف مقاومتى، وجعلنى أنزلق مرة أخرى فى ذلك العالم..

لست أُنكر عليها عاطفة الأمومة، ولكن لابد وأن تظلَّ محتفظة بعاطفة لزوجة

تجاه زوجها..

أى لقاء جسدى بيننا، حتى ولو كان مضطرباً، يمنح شعوراً بالإشباع، ويُحافظ على الرابطة بيننا دون قطع..

ولكن حتى هذا لم يحدث..

وهكذا بدأت أخرج، وأسهر، وأكذب على زوجتى أكاذيب محبوكة ومدروسة، كانت تُصدقها دائماً..

حتى كانت اللحظة التى تحدث حتماً، مهما طال الزمن..

لحظة انكشاف المستور..

زميل لى فى العمل كان يعلم بأمر سهراتى، ويرغب فى شدة أن يُشاركنى إياها، ومع إصراره، وافقت على أن يُشاركنا إحدى سهراتنا..

وعندما أخبرته أن القاعدة فى سهراتنا أن يأتى كل شخص مع رفيق أو رفيقة، بدت عليه الحيرة، وأخبرنى أنه لا يعرف سوى زوجته، فقلت: إنه إذا لم يكن لديها مانع من السهر فى صالة (ديسكو) مثلاً، فلا بأس من إحضارها..

وأتى الرجل وزوجته، وكانت المائدة محجوزة باسمى، وأخذ أفراد الشلة يتوافدون عليها..

وكان لدينا نظام فى هذه الأمور، فالفاتورة يتمّ تقسيمها على الثنائيات الموجودة على المائدة، وعددهم فى المعتاد ستّة أو سبعة..

وذلك الزميل لم يكن يعرف النظام، ولم يدفع بالتالى نصيبه من السهرة، ومن الفاتورة، التى بلغت ألف وثلاثمائة جنيه، ورحل مع زوجته سعيداً منتشياً بالسهرة..

ومرّت الأيام، وذهبت بعدها إلى حفل حقيقى مع زوجتى، ففوجئت هناك بزميلى هذا وزوجته..

وتوترت للموقف، وجذبت زميلى جانباً، وعنفته على ما حدث، ولكنه أكّد لى أن الأمر كله مدروس مأمون، وأنه أخبر زوجته أن زميلة سهرتى هى ابنة

خالتى، التى تكرهها زوجتى، والتى يمكن أن يؤدى معرفتها بوجودها معى إلى مشكلات عديدة، وأنه قد طلب منها أن تلزم الصمت تماماً فى هذا الشأن..

وبالفعل، لم تنبس زوجته ببنت شفة، ولكنها حصلت على رقم هاتف زوجتى، وهى تُفكِّر فى خبث أنه ما دمت أنا زميل زوجها، والعب بذيلى كما يقولون، فمن المحتمل أن يكون زوجها بدوره من اللاعبين بذيولهم، وأنه يمكنها معرفة تحرُكاته، لو عرفت بأمر تحرُكاتى من زوجتى..

وتبادلت الزوجتان أرقام الهواتف..

وشعرت أنا بالقلق، على الرغم من أننى لم أكن أُشارك زوجها أية نشاطات، أو حتى أرتاح لشخصيته، ولكنه طلب حضور إحدى سهراتنا، فاستحييت رفض مطلبه..

وشاء سوء حظى أن يرتبط زوجها بعلاقة خارجية، كشفتها زوجته، وتصورت أننى المسئول عن هذا، على الرغم من أننى لم أكن أعلم عنه أى شئ..

وبتلك الطبيعة الانتقامية لدى النساء، اتصلت بزوجتى، وأخبرتها أننى كاذب فى كل ما أقوله لها، وأننى أصاحب النساء، وأعطيها الفتات، فى الوقت الذى أنفق فيه ألف وثلاثمائة جنيه فى السهرة الواحدة..

وابتلعت زوجتى الطعم..

وفى يوم الخميس التالى، أخبرت زوجتى أننى مسافر إلى بلدتى الصغيرة، وكانت هذه حجتى التقليدية، حيث اعتدت السهر للصباح، ثم السفر بعدها بالفعل إلى بلدتى، والعودة فى المساء، حاملا إليها تحيات أسرتى..

ولكنها كانت تضمر فى نفسها أمرا آخر..

لقد داومت على الاتصال بى، فى منزل أسرتى، فى بلدتى الصغيرة، من منتصف الليل، وحتى السادسة صباحا، وفى كل مرة كانت تدرك أننى غير موجود هناك، وتثير قلق أسرتى أيضا..

وعندما وصلت إلى بلدتى، فى صباح الجمعة، وجدت الدنيا كلها مقلوبة، وأهلى على نار، ويُطالبونى بالاتصال بزوجتى فوراً فى (القاهرة)..

واتصلت بها، وحاولت إقناعها بأن سيارتى قد أصابها عطب، و..

ولكنها واجهتنى بكل ما تعرفه..

وغضبت..

وثارت..

وتركت منزلنا إلى بيت أهلها..

وذهبت إليها فى منزل أهلها، لأجدهم جميعاً إلى جوارها، ومعهم المأذون..

حاولت إصلاح الأمر، وناقشت أهلها، ولكنها ظلّت صلبة الرأس، وأصرت على الطلاق فى عنف، ورفضت التراجع عن مطلبها هذا لحظة واحدة..

ولأننى اعتدت مواجهة مشكلاتى بوضوح وواقعية، فقد طلبت من أهلها، فى وجود المأذون، أن أتحدث إليها لمرة أخيرة، وبعدها فليكن ما يكون..

وفى حجرتها، التقيت بها، وأخبرتها أن المأذون بالخارج، وأننى غير مستعد للدخول فى قضايا أو محاكم أو مشكلات، وأننى مستعد لتطليقها فوراً، لو واصلت إصرارها على هذا، ولن أُسبِّب لها أية متاعب.. سأترك لها الشقة كلها، وآخذ ملابسى فحسب، وسأدفع لها كل مستحقاتها، من مؤخر صداق، ونفقة متعة، ومصروفات ابنتنا الطفلة، مع تعهُّدى بزيادة تلك المصروفات مع بدء مرحلة دخول المدارس..

وواصلت هى إصرارها..

وهنا لم يكن أمامى سوى ما فعلته..

طلقتها..

كنت أمام الجميع مخطئاً بالطبع، ولكننى سرت على تقاليد وقواعد المجتمع هذه المرة، وقررت أن أنهى زواجى بالمعروف، كما بدأته بالمعروف..

وللأمانة والتاريخ، فقد راودنى شعور عجيب بعد الطلاق..

شعور بالارتياح..

كأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلى، ومشكلة دائمة قد انحسمت..

ولكن ذلك الارتياح ظلَّ مشوباً بغصة فى حلقى..

وهذا بسبب ابنتى..

كيف يمكن أن تنشأ وتنمو فى كنف غيرى، وتكبر لتجد أمها مع زوج آخر، أو على الأقل منفصلة عن أبيها؟!

كيف؟!..

عذبتنى الفكرة كثيراً، وخاصة مع كل ما شاهدته وعشته، خلال تجارب حياتى الطويلة الحافلة..

ومع تلك الفكرة كانت هناك أمور عديدة تؤلمنى..

لقد تركت منزل الزوجية، واستأجرت مرة أخرى شقة مفروشة..

وهذا أمر صعب للغاية لو تدرى..

ربما يكون سهلاً، قبل أن تعتاد حياة البيت المستقر والأسرة..

ولكنه جحيم حقيقى بعدها..

ثم إننى أكره بطبعى أن يُطالع الآخرون مراحل ضعفى..

ماذا سأقول لسائقى، عندما أطالبه بالحضور لالتقاطى من شقة مفروشة، وليس من منزلى، كما يفعل منذ أكثر من عام؟!..

كل هذه الأمور جالت بخاطرى، وآلمتنى كثيراً، وإن بدوت، خارجياً، قوياً متماسكاً، وكأن ما حدث لم يؤثر فى حياتى بمقدار ذرة..

وربمّا كان هذا هو السبب فى تراجعهم السريع..

فبعد ثمان وأربعين ساعة فحسب، بدأت اتصالاتهم بى، لإعادة زوجتى إلى عصمتى..

والمبرّرات كانت تقليدية كالمعتاد..

كل منكما ليس له سوى الآخر..

ما ذنب ابنتكما؟!..

وهكذا..

كان من الواضح أنهم قد أعادوا دراسة الأمر، بعد أن طلقت زوجتى بالفعل، وذهبت السكرة وجاءت الفكرة، وأدركوا المستقبل المُظلم للموقف..

بل ويبدو، وهذا هو الأرجح، من وجهة نظرى، أن زوجتى، بكل إصرارها على الطلاق، كانت ترغب فى تلقينى درساً فحسب، أو فى معرفة آخر مدى يمكننى بلوغه..

المهم، على كل الأحوال، أنهم قد تراجعوا تماما، بعد يومين فحسب..

ومن حسن حظى أن بدأوا هم الاتصالات..

فمن ناحيتى، كان من المستحيل أن أتصل بهم أنا..

ولولا وجود ابنتى، فربما كان من المستحيل أن أعود إلى قفص الزواج مرة أخرى..

وجود ابنة صنع فرقا شاسعا بالتأكد..

أقول هذا، على الرغم من رفضى تماما للفكرة الشائعة وسط النساء، حول ربط الرجل بكثرة الإنجاب..

فربما ينجح الأولاد فى إبقاء الزوج بالفعل، ولكن كجثة بلا حياة..

جثة شخص فقد كل مشاعره وإنسانيته، وشعوره بآدميته، وتحول إلى حطام يائس، قد يدفعه للفرار فجأة، تاركا كل مشكلات الدنيا خلفه..

والمرأة المصرية لا تبقى على بيتها كما تدعى، بل تتفنن فى إثارة المشكلات والمتاعب لزوجها، وتصرخ فيه، فينفجر فيها، ويدور الاثنان فى ساقية من العذاب طوال العمر..

والأبناء هم الضحية الحتمية لهذا الصدام.

انفلات، وفساد، وضياع، وعبدة شيطان.

أمور لم نسمع بها فى جيلنا أبداً..

المهم أننى قد استجبت لمحاولتهم فى النهاية، بعد شهر كامل، وقرَّرت العودة إلى المنزل، وأنا أتصورَّ أن زوجتى قد أدركت أخيراً أننى شخص غير قابل للتغيير، وأن طبيعتى ستظلّ كما هى، وتوقّعت منها أن تستقبل الأمور بأسلوب مختلف، وأن نبدأ معاً صفحة جديدة..

ولكن هذا لم يحدث أبداً..

إنها لم تستفد من التجربة، بأى حال من الأحوال..

ما زالت ترفض الأمور.. وبنفس الأسلوب والسلوك، بل وأضافت حالة متوتِّرة دائمة، من الحذر والترقُّب، وبدأت لعبة (Tom and Jerry) مرة أخرى..

وهكذا وجدت نفسى مضطراً مرة أخرى لعمل خطوط السير الوهمية، والفرار من المراقبة الدائمة، والنكد المستمر، بحثاً عن لحظات من الراحة والمتعة، حتى لا تطحننى الدنيا بلا رحمة..

وارتضينا معاً ذلك الكيان الهلامى، الذى آل إليه زواجنا، وعشنا أشبه بخصمين، يتربَّص كل منهما بالآخر، وانطلقت أنا مرة أخرى فى شوارع حياتى الخلفية، بعد أن تحطَّم حلم الاستقرار، وأصبح من المحتم أن أعود مرة أخرى إليها..

إلى الخيانة..

***

الخيانة

مشكلة المشاكل، فى الأسرة المصرية، هى أن العلاقة بين الرجل وزوجته لا تتخذ أبداً صورة المودة والرحمة..

أنها دائماً حرب..

حرب، يُحاول كل طرف فيها أن يصل إلى راحة ذهنه، بمعرفة الحد الأقصى، الذى يمكن أن يبلغه الطرف الآخر..

ولقد اعتدنا أن يحدث الصدام مع الأيام الأولى للحياة الزوجية..

الكل يبذل أقصى جهده، لتحديد هوية خصمه، الذى هو فى الواقع شريك عمره، ومعرفة حدوده وقدراته..

ومن ينتصر فى صدام الأيام الأولى هذا، يظلّ منتصراً طوال عمر الحياة الزوجية..

وعندما دخلت إلى زوجتى، وسألتها أن تُحدّد موقفها الحاسم فى الطلاق، وأجابتنى بأنها مُصرّة عليه، كان ثمانون فى المائة منها يرفضه فى أعماقها، ولكنها كانت تختبر، طبيعتى، وتدرس حدودى، وأقصى ما يمكننى الوصول إليه..

وبمعنى أكثر عامية، كانت تختبر ما إذا كنت سأخضع و(أنخ)، أم لا..

والدليل على هذا أن الاتصالات قد بدأت بعد ثمان وأربعين ساعة فقط..

وحتى عندما طلقتها أنا، كان هذا الإثبات أن حدودى ما زالت بعيدة، وهى لم تبلغ آخرها بعد..

كل هذا لأن الأساس الذى بُنى عليه الزواج، أساس خاطئ وغير سليم..

كل شخص يتظاهر بأنه مخلص ومثالى، ولا ينقصه سوى جناحين، ليتحوّل إلى ملاك طاهر..

وربّما ترى أكبر مثال على هذا فى هؤلاء، الذين يحرصون بشدة على صلاة الجمعة، فى الجامع القريب من مسكنهم أو مقر عملهم، حتى يراهم الكل، ويصفهم بالتقوى والصلاح، وهم فى المعتاد أكثر من يُحيط الصلاة بمظاهر فارغة، فيرتدى دائماً عباءة فاخرة، ويحمل سجادة صلاة خاصة، فى حين أنه لا

يركع ركعة واحدة فى منزله، بل وربّما كان من متعاطى الخمور والمخدرات أيضاً..

ذات مرة مثلاً، كنت أجلس فى واحدة من سهراتى، وبالقرب منى مجموعة من الشباب، حول مائدة كبيرة، وكل منهم يتحدّث عن صفقاته الضخمة، والملايين التى تنهال عليه، واستثماراته، وشركاته، و... و...

وأثناء انصرافى، فوجئت بأحدهم يستوقف سيارة أجرة، بأسلوب يوحى بأنه لم يمتلك أبداً سيارة..

فلماذا هذا التظاهر والتزييف؟!..

لماذا يظهر الكل عكس ما يُبطنون، ويتظاهرون بأفضل مما يكونون؟!..

لماذا؟!..

إننا نُحارب (البلهارسيا) منذ أكثر من نصف القرن، دون أية فائدة، ولو أننا قمنا بهذا العمل بضمير حى، لانتهت المشكلة منذ زمن طويل..

ولو أنك جلست أمام التليفزيون، وسمعت تصريحات وكلام المسئولين، لتصوّرت أننا أفضل ألف مرة من (أمريكا) نفسها..

ويا ليتنا نبلغ حتى واحد فى المائة، مما يُقال عنا فى وسائل الإعلام..

مشكلتنا أننا قوم تدفعهم الأحداث للعمل، ولا يُحاولون أبداً أن يصنعوا الأحداث..

وهذا ينطبق على كل أجهزة الدولة..

وحتى على الأسرة المصرية..

وعندما علمت زوجتى بأمر سهراتى، دفعها الحدث إلى التحرك بمنتهى العنف، فراحت تُصعّد المشكلة، وتفرض رأيها، حتى وصلت الأمور إلى الطلاق..

وحتى عندما أدركت فداحة الأمر، وأرادت أن تتراجع، كان كل همها الحفاظ على كيان هيكلى لبيتها، وشكل اجتماعى لا يمنح أحداً فرصة الشماتة فيها، أو

السخرية منها، ولم تطرأ على ذهنها أية محاولة للإصلاح أو التقويم..

ولست أنكر أننى قد ساهمت معها فى هذا..

كان من الضرورى أن يفصح كل منا عما بداخله فى وضوح، فإذا لم يحدث تطابق فى الفكر والأسلوب، يكون هناك تجاوب وتقارب على الأقل..

ومن وجهة نظرى، لو أننا تعاملنا ببساطة أكثر، حتى فى أمور الحب والزواج، سنجد أنه من السهل أن نؤدى فروضنا وعقائدنا، أيا كانت دياناتنا أو انتماءاتنا..

كل طاقتنا، التى نهدرها فى التحايل واللف والدوران، سنسخرها لبيوتنا وأعمالنا وعقائدنا..

وحتى فى خلافاتنا، سنجد وسائل أكثر رقيا وحضارة..

لو أنك لا تهوى مشاهدة الأفلام العربية، وزوجتك لا تميل للأفلام الأجنبية، فيمكنك أن تبتاع جهاز تليفزيون آخر صغير لنفسك مثلا، أو تتفقا على تبادل المشاهدة.. أنت يوم وهى يوم..

ولابد وأن تدرك هى قيمة عطاءك، وأن تقابله بعطاء مماثل..

ولكن ما يحدث هو أننا نصطدم..

ونتنافس..

ونتقاتل..

ووسط كل هذا، تضيع أحلامنا، وطموحاتنا، وإرادة صنع الأحداث..

إلا لو صنع كل منا لنفسه حياة أخرى جانبية..

حياة خيانة..

المشكلة الحقيقية، هى أنه مع مرور الوقت، يزداد ارتباطك بالحياة الثانوية الجانبية، لما فيها من راحة ومتعة وانطلاق، ويقل ارتباطك بالحياة الأساسية، التى بها بيتك وزوجتك وأبناءك، لما تحمله لك من صراعات وهموم ومشكلات..

وربما يُصبح ارتباطك بالحياة الجانبية أكثر قوة بكثير، لأن هذا لا يعتمد على رغبتك وحدها، ولكن على مقدار الانفلات لدى الطرف الآخر، والموجود فى أعماقه..

وبالطبع، سيُضاعف هذا من حتمية المناورة والتحايل والكذب والخداع، فى محاولة للحفاظ على الحياتين معاً..

وفى الوقت ذاته، يمكن أن يتسلَّل هذا إلى منزلك، دون أن تدرى..

من الممكن أن تسقط زوجتك أيضاً، دون أن تشعر أنت بهذا، لأنك منشغل تماماً بحياتك الثانوية، مع أخرى، هى أيضاً زوجة آخر..

وهكذا يختلط الحابل بالنابل، ويتحوَّل المجتمع كله إلى سلاطة..

وأنا أعلم أن هذا يحدث، لأننى مشارك فيه، وأراه فيما حولى، وأعلم أنه يحدث حتماً، عندما يستبدل المرء حياته الأساسية بحياة ثانوية..

والمجتمع أصبح يُساعدك كثيراً على هذا..

أنا مثلاً أتردَّد على بعض الأماكن، التى أسهر فيها حتى السادسة صباحاً، وأجد هناك فتيات، أعمارهن بين التاسعة عشرة والثالثة والعشرين، وملابسهن وأحاديثهن تؤكِّد أنهن متعلمات، وعلى الرغم من هذا فأنا أُغادر فى الصباح وهن ما زلن جالسات فى المكان، بثياب سهرة فاضحة..

كيف قضين الليل خارج بيوتهن إذن؟!..

من أين أتين بثياب السهرة والهواتف المحمولة ومصاريف السهر؟!..

إنها دعارة مقنَّعة، انتشرت فى المجتمع كله، كانعكاس للمشاكل الاقتصادية..

فى البداية لا تجد الواحدة منهن مشكلة فى سهرة بريئة، ثم موبايل هدية، حتى يمكن لصديقها الاتصال بها، وبعدها لقاء شخص، وسهرات غير بريئة، وهكذا..

والثمن لم يعد كبيراً، وكأن الشرف لم يعد غالياً كذى قبل..

فالبنت تنحرف اليوم لتحصل على الموبايل..

ثم تواصل الانحراف، لتؤمّن مصروفاته..

وأحياناً ما يكون الثمن أقل..

مجرّد سهرة أنيقة، أو دعوة للعشاء فى مطعم فاخر..

ولا أحد يسأل أو يهتم..

أو حتى يُحاول حل المشكلة..

الحلول من وجهة نظرنا دائماً هى نوع من التطرُف..

تطرُف فى الدين..

أو فى الفساد..

والكل يبحث عن وسيلة للفرار من واجباته ومسئولياته..

الموظف فى عمله، والطالب فى مدرسته، وحتى الزوج والزوجة فى حياتهما..

وفى الوقت ذاته نولى المظاهر اهتماماً بالغاً، يفوق كل أنواع المنطق والسلوك السوى..

هناك من يضطر لإكمال عشائه نوماً، وعلى الرغم من هذا تجده يحمل الموبايل فى يده، للتباهى والتظاهر..

وفى النهاية نصنع من حياتنا براميل بارود، قابلة للانفجار فى أية لحظة..

أنت تخون زوجتك، فى حياة ثانوية، وهى تصنع بك ما تصنعه بها، وكلٌ لا يعلم..

أو يعلم..

ويصمت..

ويترك العجلة تدور..

كيف إذن يمكننا أن نعود إلى الصواب، فى حياتنا وسلوكنا؟!..

علامة استفهام كبيرة، لست أملك مقومات إجابتها؛ لذا فأنا أترك الجواب لكل من قرأ هذا الاعترافات..

كيف يمكنك أن تُصبح راضياً مطمئناً، تمتلك مفاتيح السكينة والهدوء؟!..

كيف تجمع شتات نفسك، وتجد ذاتك داخل جدران بيتك؟!

كلها أسئلة أبحث عمن يُجيبنى عنها..

وهذه أفكارى، من منظور تجربة شخصية بحتة، لك الحق، كل الحق، فى أن تقبلها أو ترفضها..

أو حتى تلعن صاحبها..

أنت حر.

* * *

بعد أن قرأت

هل انتهيت من قراءة هذه الاعترافات، حتى آخر سطر؟!..

هل صدمتك بعض وقائعها، وأذهلتك مقاطع من أحداثها، واستنكرت مشاعرك فقرات من أفكارها وفلسفتها؟!..

لو أصابك كل هذا، أو حتى شئ منه، فأنت على حق!..

أنا أيضاً شاركتك هذا، خلال أكثر من عشر ساعات من التسجيلات، وضعفيها من الصياغة، والمراجعة، والتصحيح..

فمن المؤكَّد أن حياة صديقى هذا لم تكن عادية أبداً..

لقد كانت حياة شاقة، مرهقة، على الرغم من كل ما قد توحى به من الانفلات، والفساد، والبحث عن المتعة بلا قيود..

وبلا حدود..

حياة شخص فقد ذاته فى حداثته، وعاش يبحث عنها، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

شخص لم يشعر أبداً بالارتياح أو الاستقرار، مهما رأى، أو قال، أو فعل..

شخص يختلف عنى وعنك، وله فلسفته الخاصة..

فلسفة قد نتفق معها، أو نستنكرها، أو كما قالت كلماته، نلعنها..

ولكننا سنقف أمامها حائرين حتماً..

فعلى الرغم من كل ما فعله، كانت رؤيته للعلاقات الزوجية مثيرة للاهتمام بحق..

وتحوى الكثير من الحقائق..

ورؤيته للعالم أيضاً، كانت عبر منظور فلسفى دقيق..

وهذا يُثبت أنه ما زال كما عرفته، منذ عهد طويل..

شخص متناقض، بكل ما تحمله الكلمة من معان..

يحيا حياة فاسد زنديق، بقلب فنان شاعر رقيق، يُخفى عواطفه خلف وجه جامد خشن، وابتسامة تحار فى فهم مغزاها بالضبط..

ولكنه، وعلى الرغم من كل هذا، يمتلك جرأة لا نمتلكها كلنا..

أو لا يمتلكها معظمنا على الأقل..

جُرأة كشف مكنونات النفس، والاعتراف بالأخطاء، بكل الصراحة والوضوح..

والسؤال الحقيقى هو: لماذا قرَّر أن يروى اعترافاته كلها الآن؟!..

لماذا صمَّم على كشف كل أسراره، وإعلان حقيقته بهذا الوضوح؟!..

الأمر الذى أعلمه جيِّداً، هو أن صدور هذا الكتاب، سيتوافق مع مرحلة جديدة وتغيرات حاسمة، فى عمله وحياته..

تُرى، أهى إذن وسيلة لنفض حياة قديمة، وبدء حياة جديدة؟!..

أم هى محاولة للتطهُّر من كل أخطاء وتوترات، وانحرافات ماضى قريب؟!..

الخطوة الأولى، فى كل أنواع العلاج النفسى، كما تعلمنا فى الكلية، هى المصارحة، والمكاشفة، وطرح كل الحقائق، ومواجهة النفس بوضوح تام..

وهذا ما فعله هو بالضبط..

فهل هذا ما كان يعنيه؟!..

وما يستهدفه باعترافاته؟!..

هل يتطهَّر من ماضيه، أم يُضئ مستقبله؟!

ربَّما هذا أو ذاك..

أو هو لا هذا ولا ذاك..

هذا ما ستُجيب عنه الأيام القادمة..

فدعونا ننتظر..

فربَّما كان للحديث بقية..

ربَّما..

د. نبيل فاروق

١٩٩٩/١٢/٢٣

مصر الجديدة

* * *